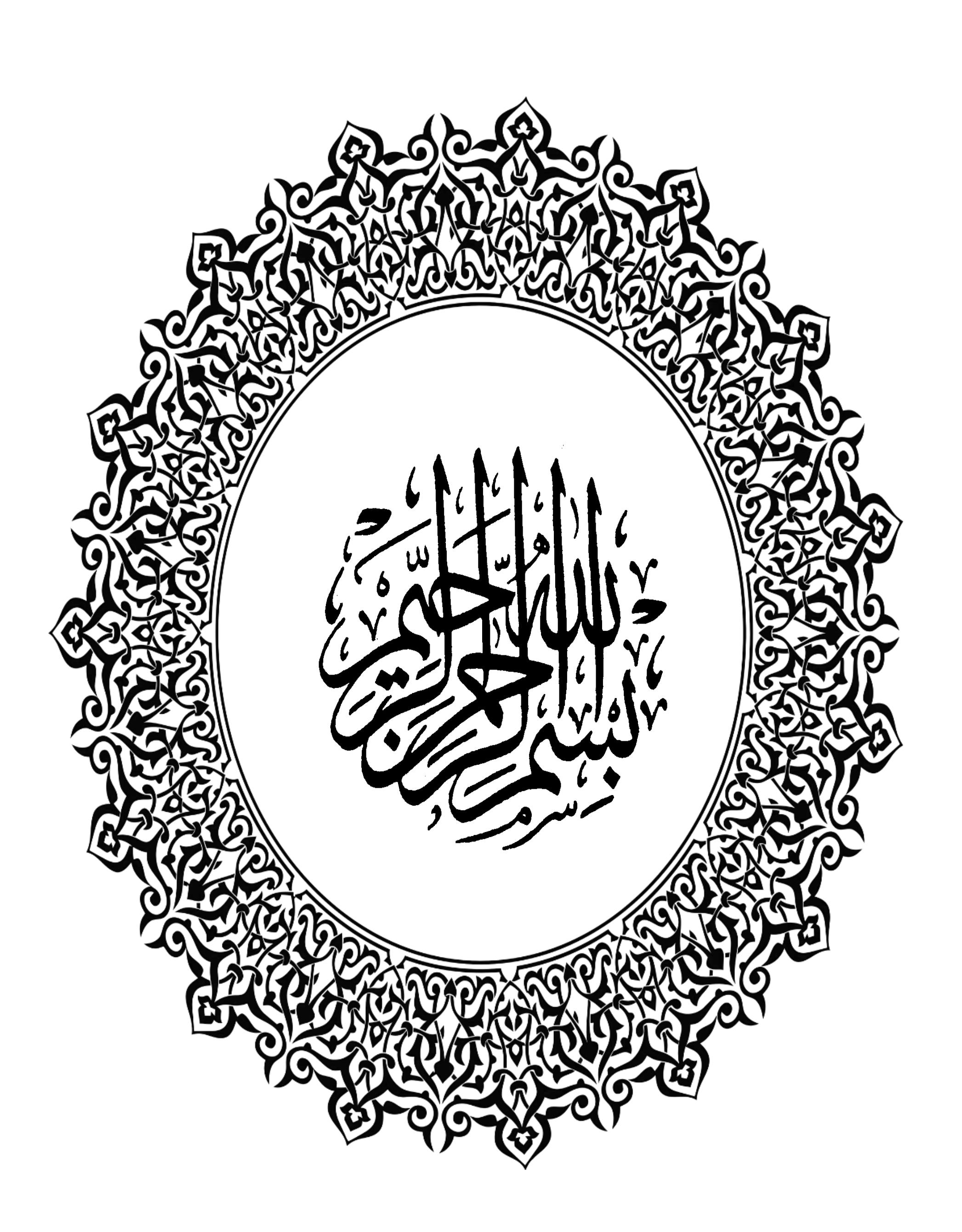
الأدلة المادية على وجود اللّه


بسم الله الرحمن الرحيم



الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

الأدلة المادية على وجود الله

لفضيلة الإمام الشيخ

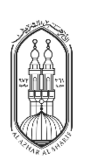
محمد متولي الشعراوي

(ت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)

دراسة وتقديم

الأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم

عضو هيئة كبار العلماء



الأزهر الشريف

هيئة كبار العلماء

تليفون: ٠٢٢٥٩٣٩٠٤٦

فاكس: ٠٢٢٥٩٣٩٤٦

البريد الإلكترونى:

SeniorsCouncil@alazhar.eg

الموقع الإلكترونى: www.azhar.eg

العنوان:

ش الأزهر – أمام مسجد

سيدنا الإمام الحسين – القاهرة

*****

فهرست الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية: الأدلة المادية على وجود الله

الشيخ/ محمد متولي الشعراوي

ص: ٥, ١٧ × ٢٥

عدد الصفحات: ٢٠٤

الطبعة الأولى

لهيئة كبار العلماء

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠ م

متعهد الطبع:

مجمع مطابع الأزهر الشريف

تليفون: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

فاكس: ٠٢ ٢٦٨٤٠٥٥٧

****

تصميم الغلاف:

أ/ إسماعيل عبده محمد علي

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٥٦٣٥

افتتاحية

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومَن والاه...

وبعد:

فإن مركزَ اتزانِ الكرةِ الأرضيةِ - جغرافيًّا وفكريًّا ومجتمعيًّا - هو العالمُ العربيُّ والإسلاميُّ؛ الذي يستندُ إلى (مصر الأزهر) وبها قِوامُه؛ يأخذُ منها ويتلقى عنها؛ جيلًا وَراءَ جيلٍ.

وبريادة فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الأستاذ الدكتور أحمد الطيب شيخِ الأزهرِ وتوجيهاته؛ يقوم الأزهر الشريف بأداء واجبه من خلال منهاجه الوسطي الأصيلِ، وعالميةِ رسالتِه وعِلميتها؛ فيعمل على:

- إنارةِ العقولِ وَهِدَايَتِهَا، والعملِ على رقيِّها ويقظتِها.
- وقايةِ المجتمعاتِ من انحرافِ الأفكارِ وتشددها، وباطلِ الآراءِ وساقِطِها، ومرذولِ العادات ودخيلِها.

وقد وسعت وسطيته وعالمية رسالته: تنوعَ الفُهومِ، واختلافَ العاداتِ، وتعدُّدَ الثقافاتِ؛ وصار ما تُصْدِرُهُ أرضُ الكنانةِ محطَّ الأنظارِ، ومبعثَ القدوةِ والاحتذاءِ، وبخاصة فيما يمسُّ الشرعَ الشريفَ.

وتأتي هيئةُ كبارِ العلماءِ وهي قمةُ الجهازِ العلمي في الأزهر الشريف؛ لتقوم بدورها في هذا السبيل، مِن:

- تجليةِ صحيح الدين، وبيان وسطيته واعتداله: عقيدة وشريعة وأخلاقًا.
- تصحيحِ المفاهيم، وردّ الشبهات، وكشفِ عوارِ الأفكارِ المنحرفةِ والمتطرفةِ.
- معالجةِ قضايا العصر ومشكلاته.
- تلبيةِ حاجات المجتمع، وإجابة تساؤلاته.
- ترسيخِ قيم التعايش والمواطنة، ودعم رفعة الأوطان ورُقيِّها.

ويتجلى طرف من ذلك في هذه الإصدارات للسادة العلماء الأجلاء؛ أعضاءِ الهيئة– ومَن في درجتهم– قدامى ومعاصرين، والكتاب الذي معنا يعالج قضية راهنة؛ هي قضية الإلحاد؛ بأدلة وشواهد عقلية وعلمية وحسية مقنعة وملزمة، مقتبسة من مشكاة الذكر الحكيم، وهو لفضيلة إمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله، وقدَّم له فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم، عضو هيئة كبار العلماء، حيث صحب الشيخ وجالسه، وكانت بينهما وشيجة ومؤانسة؛ فكان أقرب إليه وأعرف به، وكتب كذلك دراسة عن فصول الكتاب تستخرج مكنونه ودرره معبدة الطريق للقارئ الكريم.

وبالله تعالى التوفيق

أ.د/ صلاح محمود العادلي

أمين عام الهيئة

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور: أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فيشتمل هذا التقديم على أمرين:

أولا: عن حياة مؤلف الكتاب وهو العالم العلامة إمام الدعاة فضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي.

ثانيا: عما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأدلة المادية على وجود الله سبحانه وتعالى.

واذكر في استهلال هذا التقديم ما قلته عن فضيلته – رحمه الله – في يوم ذكراه:

سلاما شيخنا الغالي سلاما ... وأنعم بالجنان لكم مقاما
أتت ذكراك تسقى الناس ريا ... كماء النيل قد بل الأواما
شرحت كتاب ربك في يقين ... وحاربت الضلالة والخصاما
وجاءتك المعاني مشرقات ... فعالجت الجهالة والسقاما
ووافتك البلاغة في خشوع ... وإكبار وأسلمت الزماما
فجاء الشرح لم تسبق إليه ... ولم تلحق فكنت لنا إماما

لقد كان هذا الإمام الجليل واحدا من القلائل الذين يظهرون في مراحل التاريخ على فترات متباعدة، تحدث فأصغت الدنيا لحديثه، وفسر القرآن الكريم، فجاء بالجديد الذي لم يسبقه أحد إليه، فقد منحه الله موهبة استخرج بها من كنوز القرآن وأسراره وحكمه ما لم يستخرجه أحد من قبله.

نسبه ونشأته

هو الإمام المفسر الداعية فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ولد بدقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية في الخامس عشر من شهر أبريل سنة إحدى عشرة وتسعمائة وألف ميلادية.

وكان يعرف بين أهل بلده في مطلع حياته بالشيخ "أمين"، حفظ القرآن الكريم، والتحق بمعهد الزقازيق الديني، وتزوج وهو طالب، حيث كان والده من الصالحين ومن الميسورين، وكان يرى أن الزواج المبكر عصمة للشباب، وعون له على العفة، وعلى تقوى الله سبحانه وتعالى، وبعد أن أنهى المرحلة الثانوية التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وتخرج فيها سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية، ثم حصل على الشهادة العالمية وإجازة التدريس سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية وعمل فضيلته بالمعاهد الأزهرية في مصر، كما عمل بالتدريس والدعوة خارج مصر في السعودية والجزائر والمغرب.

في الزقازيق

وعاش فترة طلب العلم الأولى في مدينة الزقازيق حيث كان طالبا في معهد الزقازيق الديني، وكان يعتز بهذه الفترة أيما اعتزاز، وكان كلما رآني يتذكر هذه الفترة، ويقول كانت سعادتي أنني أقدر ثلاث أسر فيها وارتبط روحيا بها.

الأسرة الأولى: هي الأسرة الهاشمية وكان له تعبير خاص يقول "الهواشم"، وكان يدعو كثيرا لشيوخ آل هاشم ويحبهم حبا جما، ويتذكر مناقبهم ومناقب الأسرة الهاشمية.

والأسرة الثانية هي: "المسلمية".

والأسرة الثالثة هي: "الخليلية" وكان يتذكرهم بعلمائهم وأوليائهم وورعهم وتقواهم؛ لأنه كان يحب العارفين بالله والأولياء الصالحين حبا جما، وكانت عاطفته الدينية والصوفية تدفعه إلى تذكر إخوانه العلماء العاملين وأهل الصلاح ويحكى كثيرا عن مواقفهم.

في يوم الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر:

واذكر له موقفا في يوم الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر الشريف وكان الإمام الشعراوي أحد أولئك المكرمين من العلماء في هذه المناسبة، وبعد أن انتهى الاحتفال، قال لي المغفور له فضيلة الشيخ محمود أبو هاشم – رحمه الله تعالى – اذهب إلى فضيلة الشيخ الشعراوي وقل له: أرجو أن تنتظر حتى أحضر للسلام عليك، وكان الشيخ الشعراوي على مقربة من منصة الاحتفال؛ فأجابني على الفور قائلا: بل أنا الذي سأذهب إلى فضيلة الشيخ محمود أبو هاشم لأسلم عليه، أين هو؟ فأشرت إلى المكان الذى يجلس فيه، فذهب إليه على الفور وصافحه وجرى بينهما حديث ودى أخوى يتسم بالمحبة والمودة.

وكان المكرمون في العيد الألفي للأزهر كثيرين في داخل مصر وخارجها، وكان يدعى كل عالم أو مفكر لتكريمه فيصفق الحاضرون له، حتى دعى فضيلة الشيخ الشعراوي، فما إن سمع الحاضرون اسمه إلا ظلوا يصفقون فترة طويلة جدا ضجت القاعة فيها تعبيرا عن إعزازهم للشيخ وإجلالهم له وتقديرهم لدوره الكبير المؤثر في حياتهم؛ فقد كانت القاعة بكل من فيها في فرح وسرور لتكريم فضيلة الشيخ الشعراوي الذي أثرى بأحاديثه وأفكاره الرائدة حياتهم الإسلامية، وكان متفردا في آرائه السديدة النافعة.

لقائي به في مكة:

في عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد كانت إعارتي إلى مكة المكرمة للعمل في كلية الشريعة بها، ونزلت أولى أيامي هناك على فضيلة الأستاذ الدكتور الحسيني هاشم رحمه الله رحمة واسعة، وكان فضيلة الشيخ الشعراوي آنئذ قد استدعى من مكة ليكون وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر، فصحبني فضيلة الأستاذ الدكتور الحسيني هاشم – رحمه الله – لزيارة فضيلة الشيخ الشعراوي في سكنه في مكة المكرمة قبل أن يذهب إلى مصر لتولي عمله الجديد وزيرا، وجلسنا معه فترة طويلة كنت استشف من هذا اللقاء بعد نظره وقوة قريحته، وحسن مشورته فقد كان في مجلسنا أحد الإخوة من المسئولين السعوديين، وكان يأخذ رأيه في التعليم وفي كيفية النهوض بحفظ كتاب الله تعالى، وكنت أتتبع إجابته لهذا المسئول وهي تتسم بالروية والأناة، وبالواقعية وعدم المغالاة، ويعطي رأيه بالعقل وبروح التطبيق؛ وكأنه يتنزل إلى إمكانات الأطفال الذين يسأله عنهم ذاك المسئول.

وسعدنا في هذا اللقاء بجلسته وآرائه أيما سعادة، ومن يومها وأنا أستبشر خيرا حيث أخذت مكانه في التدريس في كلية الشريعة بمكة المكرمة، وقمت بتدريس مادة التفسير والحديث في هذه الكلية مدة أربع سنوات كانت كلها بركة، لأنني كنت أسجل فيها وأدون جميع كتاباتي ومحاضراتي؛ فكانت هذه الفترة فترة تكوين علمي وتأليف من أكبر فترات حياتي، ألفت فيها قرابة عشرة كتب من أحسن مؤلفاتي التي ألفتها.



لقائي بالإمام الشعراوي في المدينة المنورة

لقد شاء الله تعالى لي أن التقى بالإمام الشعراوي في المدينة المنورة، كما التقيت به في مكة المكرمة، وكان لقائي به في المدينة في مناسبة أداء فريضة الحج، وكنا قد نزلنا في فندق واحد، ورأيت من حسن الموافقات أننا في مكان واحد؛ ليسهل علينا أن نلتقي بسيادته وأن نسعد بالجلوس معه، خاصة أنه لقاء في مكان طيب طاهر، وبجوار أشرف الخلق سيدنا رسول الله – عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وما إن علم بعض الناس صلتي بفضيلته إلا وقد طلب مني أن أذهب معه إلى مقر إقامته؛ لأرجوه في طلب خاص ليكلم بعض كبار المسئولين السعوديين لقضاء حاجة هذا الأخ المصري، وما إن حدثته بالتليفون الداخلي من غرفتي إلى غرفته إلا ورحب داعيا أن أحضر إليه على الفور، وكان انئذ قد نزل المكان المعد له منذ لحظات ودخل غرفته ليتخفف ويستريح، ولكنه ترك باب الغرفة مفتوحا حتى أحضر، ودخلنا وخرج فضيلته لمقابلتنا كعادته في البشر والترحاب وغمرنا بكريم لقائه، واستقبل من كان معي حين ألقينا عليه حاجته بالإجابة لقضائها، والسعي لهذه المصلحة، فقد كان يحب قضاء حوائج الناس، ويرى في هذا عبادة وتقربا إلى الله سبحانه وتعالى.

وتذكرت انئذ قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" رواه البخاري ومسلم.

الأسرار الروحية للإمام الشعراوي

أحب الإمام الشعراوي كتاب الله تعالى، فأفضى إليه بأسراره، وأحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فأفاض عليه من أنواره، أما محبته لكتاب الله ووقوفه على الكثير من أسرار التفسير، فواضح من تفسيره وتحليله، واستخراجه للكنوز التي لم تستخرج من قبله، فكم هي كثيرة كتب التفسير، ولكننا لا نجد فيها ما سمعناه من هذا الإمام المجدد، الذي نهض بقلبه الموصول بربه وفكره المعطاء يحلل كل كلمة وكل حرف، ويقف وراء كل آية، ويغوص في بحار المعرفة فيستخرج الدرر الكامنة والأسرار الروحية إلى جانب تجلية المعاني وتفسيرها، رحمه الله رحمة واسعة وأنزله منازل الأبرار.

عرض فصول الكتاب:

اشتمل كتاب: "الأدلة المادية على وجود الله" على ستة فصول:

الفصل الأول: أسباب الوجود

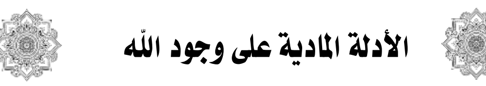
الفصل الثاني: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)

الفصل الثالث: الدليل الغيبي

الفصل الرابع: (وفي الأرض آيات للموقنين)

الفصل الخامس: الأدلة المادية من القرآن

الفصل السادس: وفي كل شيء دليل



- أما الفصل الأول: فهو عن أسباب الوجود وقد بدأ بأول دليل مادي، موضحا أسباب الوجود وأنه دليل الخلق، وبين أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولا قبل أن يخلق الإنسان، فقد جاء الإنسان إلى الوجود، وكل شيء قد أعد له قبل أن يأتي وقبل أن يوجد قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ «سورة البقرة (٢٩)».

والله الذي خلق الكون هو الذي خلق الإنسان وأوجده في هذه الحياة، ولابد أن يشهد الإنسان بأن له خالقا وموجدا، فلا يوجد من يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه. فالله سبحانه هو خالق كل شيء، ورد على بعض الذين يدعون أن الكون وخلق بالمصادفة، أو أن الذرات الساكنة تحركت وتكثفت واتَّحدت، نقول من أوجد هذه الذرات؟ ومن الذي حركها؟

ورد على الذين يضلون الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق الإنسان، ومن يدعى أن أصل الإنسان قرد، يقول المؤلف رحمه الله تعالى: فنحن لم نشهد قردا تحول لإنسان.

وإذا كان أصل الإنسان قردا، فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن ولم تتحول إلى بشر ومن الذي منعها أن يحدث لها هذا التحول ما دام قد حدث في الماضي؟! على أننا نقول لكل من جاء يتحدث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدعيا أن الله ليس هو الخالق، نقول له: أشهدت الخلق؟ فإذا قال: لا، نسأله: ففيم تجادل؟

قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ «سورة الكهف (٥١)»، وقضية الخلق محسومة وأنه لا خالق إلا الله تعالى، ومعلوم أن صانع كل شيء يحرص على الإعلان عن نفسه وأن يعرف أنه صانعه.

فهل يستطيع مخلوق كائنا من كان أن يزعم أنه قد خلق الشمس؟ لقد وضَّح رب العزة أنه هو الذي خلق الشمس، فإذا كانت قوة أخرى تدعى هذا أفلا تعلن عن نفسها؟

الواقع: هو أنه لم يدع هذا أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدعى أنه الخالق..

حتى الكفار لم يستطيعوا أن يجادلوا في هذه القضية ولننظر إلى جواب الكفار حين يسألون عمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر؛ إنهم لا يستطيعون الإنكار ولا الجحود.

بل إنهم يعلنون صراحة أن الخالق هو الله سبحانه قال الله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ «سورة العنكبوت (٦١)».

ويقول الله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ «سورة العنكبوت (٦٣)».

فالكفار والمشركون مع كفرهم وإشراكهم لم يجادلوا في خلق الكون والإنسان.

وليس أمر الخلق – فقط – للكون والإنسان، بل إنه يمتد إلى جميع المخلوقات والكائنات يقول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ «سورة الانعام (١٠٢)».

ولننظر إلى طلاقة القدرة الإلهية في الخلق حين ننظر إلى قوانين الأسباب.

نرى أنه من لقاء الذكر بالأنثى يأتي الولد، ولكن الله سبحانه الذي خلق هذا؛ أبقى لنفسه طلاقة القدرة فكما جعل الولد يأتي من خلال الذكر والأنثى خلق إنسانا بدون ذكر أو انثى وهو آدم عليه السلام وخلق حواء من ذكر بدون أنثى حيث خلقها من ضلع آدم عليه السلام، وخلق إنسانا من أنثى بدون ذكر وهو عيسى عليه السلام، وهذا كله يدل على طلاقة القدرة الإلهية فليس على قدرة الله تعالى قيود ولا حدود فهو سبحانه خالق الأسباب وقدرته فوق الأسباب.

ونرى طلاقة القدرة الإلهية في ظواهر الكون فنرى الأمطار تنزل في بلاد دون بلاد، وفي أماكن دون أخرى

ونرى طلاقة القدرة في النبات حيث تعطى الأرض بالماء النبات ثم تأتي آفة فتقتضي على الزرع فلا يكون الثمر: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ «سورة الكهف(٤٢)».

فقدرة الله فوق الأسباب.

كما نرى طلاقة القدرة في الحيوان، فها هو الجمل أو الفرس تزيد قوته على قوة الإنسان مرات ومرات، ولكن الله قد ذلَّله للإنسان فترى الطفل الصغير يقود الجمل أو الفرس، ويمضى الجمل أو الفرس ذليلا مطيعا وهكذا.

ونرى طلاقة القدرة في الجماد، حيث تبدو قشرة الأرض ثابتة ولو لم تكن ثابتة لاستحال البناء عليها والحياة فوقها، ولكن في بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى عدم ثبات فتتفجر البراكين وتحدث الزلازل، بل إنه من طلاقة القدرة أن الله تعالى أعطى بعض الحيوانات التي ليس لها عقول غريزة الإحساس بقرب وقوع الزلازل؛ فتغادر المكان ويحدث لها هياج.. وهكذا رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب: الدليل الأول المادي والذي تمثل في: "أسباب الوجود" ورأينا معالجة المؤلف لقضية الخلق، في الإنسان، وفي الأكوان، وكيف استنبط من ذلك طلاقة القدرة الإلهية في الإنسان، وفي الحيوان، وفي النبات وفي الجماد، وفي كل شيء، فهو خالق كل شيء وهو القادر المقتدر والمبدئ والمعيد، وهو على كل شيء قدير.

ومن المعلوم أن هناك أدلة عقلية ونقلية ونصوصًا كثيرة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية المطهرة، تطرق إليها الكثير من المؤلفين ومن الباحثين، ولكن الإمام الشعراوي رحمه الله تعالى رحمة واسعة نحا منحى من أهم ما يكون ألا وهو الاستدلال بالأدلة المادية، نقول: ولماذا هذه الأدلة المادية؟

الجواب: هو أن هناك في المجتمعات البشرية الكثير الذين لا يؤمنون بالنصوص ولا بالأدلة النقلية ويقولون: إننا نحتكم إلى العقل وإلى ما في الكون وإلى ما في الطبيعة

فأراد المؤلف أن يوضح لهم أدلة مادية مبثوثة في كتاب الكون المفتوح، وناقش القضية من خلال طلاقة القدرة الإلهية التي لا تدع مجالا للشك بأن الله تعالى موجود وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وأنه قد اتضح لكل ناظر في هذه الأدلة المادية، أن لهذا الكون إلها خلق فسوى وقدر فهدى، فيؤمن بالله كل إنسان معه عقله، حتى وإن لم يكن مؤمنا بالأدلة النقلية فهذه الأدلة المادية تقنع الجميع.

الفصل الثاني: الدليل الثاني:

قال الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ «سورة الذاريات (٢١)».

وضح الإمام الشعراوي في هذا الفصل مقاييس الخير والشر فبين أن مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية، وأما مقاييس الشر فتضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهي ترتكبها، فالذي أعلم النفس بهذا وذاك هو الله.

ثم نرى أيضا الإيمان بالغيب: وأن هناك علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

أما علم اليقين فهو ما يأتي الإنسان من معلومات من قبل إنسان يثق فيه ويعلم أنه صادق في كلامه، وأما عين اليقين فهو أن ترى الأمر الذي حدثك عنه أمامك وتراه بعينك فيكون هذا عين اليقين، فإذا لمسته بيدك وتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين.

وكل شيء بقدرة الله تعالى، حتى حركات الإنسان الاختيارية لا تتم إلا بقدرة الله تعالى.

فجسد الإنسان مسخر له بقدرة الله الذي وهب للإنسان ما يريد دون أن يدري أو يحس كيف تم هذا الفعل حتى الضحك والبكاء قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ «سورة النجم(٤٣)».

والإنسان خاضع لقدر الله رضى أو لم يرض ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة آل عمران (٢٦).

وعلى الإنسان الذي يقبل على عمل ما أن يقدم المشيئة أولا ويعطي الأمر لصاحبه وينسبه إلى الفاعل الحقيقي فقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾. «سورة الكهف (٢٣، ٢٤)».

وعلى الإنسان أن يتدبر ما في نفسه وأعضائه من إعجاز في الخلق حين يرى أن بصمة أصبعه لا تتشابه مع إنسان آخر والناس لا يدركون هذا، ولكن كلب الشرطة المدرب هو الذي أعطاه الله ملكة تمييزها فيشم رائحة الأثر فيخرج الإنسان المطلوب من بين مئات الأشخاص.

وهكذا نرى الدليل المادي من نفس الإنسان حيث يعلم بالفطرة ربه ويعلم الخير والشر بالفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها كما قال سبحانه ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ «سورة الشمس (٨)»

والآية الكريمة التي قال فيها رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ اشتملت على كل ما سبق من إعجاز في الخلق قدرة الخلاق العليم سبحانه وتعالي وهذا دليل صدق على وجوده ووحدانية وقدراته وقيومته.

الفصل الثالث: الدليل الغيبي:

وضح المؤلف أن الغيب نوعان: غيب نسبي وغيب مطلق، فالغيب النسبي مالا تعلمه أنت ولكن يعلمه غيرك، والغيب المطلق: هو الذي لا يعرفه أحد إلا الواحد الأحد سبحانه وتعالي:

وما يتعلق بالنفس البشرية: يعلم الله غيبها وما تخفيه.

وإذا نظرنا إلى أبي لهب وما نزل في شأنه وأنه سيموت كافرًا، وكان من الممكن أن يقول أبو لهب رياء ونفاقًا كلمة الشهادة ليهدم قضية الدين، ولكن حتي هذا الذي يمكن أن يفعله أبو لهب لم يخطر على عقله ولم يقله

يقول الإمام الشعراوي على هذا الموقف:

أليس هذا دليلا على أن ما يريده الله لابد أن يحدث، وأن ما يقضي الله به غيب لابد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك.

وجاء القرآن بالدليل المادي على أن الله تعالي عالم الغيب وأن ما يقوله حادث ونافذ قال الله سبحانه ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ

سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة الروم (١-٤)

فعندما هزمت الروم فرح الكفار لأن الفرس دولة كافرة تعبد النار والروم دولة مسيحية أهل الكتاب.

وحزن المؤمنون لهزيمة الروم لأن الكافرين انتصروا على قوم أهل الكتاب.

ولكن الله تعالى طمأن المؤمنين وأذهب عنهم الحزن بنزول الآيات القرآنية التى تبشر المؤمنين بأن الروم سينتصرون بعد بضع سنين، وقد تحقق نصرهم كما أخبر القرآن وفرح المسلمون بنصر الله للروم.

ودليل غيبي آخر يزيد من الأدلة العقلية التى تثبت وجود الله في قول الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ سورة طه (٦)

وكان ما تحت الثرى أي التراب غيب لا يعلمه أحد، ولما أراد الله أن يكشف ما تحت الثرى وكان غيبًا عن الناس فكشف الله ما تحت الثري من كنوز وبترول وذهب ومعادن وحديد ومياه جوفية، فكان دليلًا آخر على أن ما هو غيب عنا موجود وإن كنا لا ندرك وجوده.

فأعطانا الله من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود فإذا حدثنا عن أمور الغيب كالآخرة والحساب والجنة والنار أيقنا بالحقيقة التي لا لبس فيها وكانت الأدلة المادية طريقًا إلى الإيمان

الفصل الرابع: في قول الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ سورة الذاريات(٢٠) "والأرض مددناها" سورة الحجر (١٩) ولم تحدد الآية أرضا بعينها، بل قالت الأرض على إطلاقها، فإذا وصل الإنسان إلى أي مكان يسمي أرضا، وفى أي بقعة من الأرض تراها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية فلو كانت مربعة أو مثلثة أو على أي شكل هندسي آخر فإنك تصل فيها إلى حافة، ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية.

وفي دوران الأرض دليل مادي على خالقها سبحانه وتعالي القائل:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سورة النمل(٨٨)، فتري الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها ولكنها تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض فهي تدور معها كما تحرك الريح السحاب.

وهنا دليل آخر في معجزة الخلق في النباتات والزروع والثمار.

فترى الزرع ينبت في مكان واحد ويسقى بماء واحد، ولكن نرى أن كل ثمرة لها طعم خاص وشكل خاص ولون خاص ورائحة خاصة، وحجم يختلف عن غيرها.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ «سورة الرعد ٤»

ونحن نمر على الجنات الموجودة في كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات، ثم بعد ذلك يتساءل: أين الدليل المادي سبحان الله القائل ﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ «سورة يس ٤٦».

وفي الفصل الخامس: مع الأدلة المـادية من القرآن الكريم، التي تكشف لغير المؤمنين تلك الآيات والادلة في الكون.

ولننظرإلى ماقاله القرآن عن الجنين منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ سورة المؤمنون (١٢-١٤)

ولقد عرض عالم كندي كل أطوار الجنين في بطن أمه، والتي التقطت أحدث الأجهزة العلمية أطوارها فإذا هي تنطبق تماما على كل ما ذكر في القرآن الكريم من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك.

وأعلن أكبر علماء العالم في علم التشريح إسلامه عندما وصل إلى ما قال القرآن الكريم.

وهاهو البروفيسور (تاجاثات جاسن)قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنًا؟

قالوا: نعم قال: إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثًا ولا يمكن أن يكون قائلها بشرا، بل هي من الله سبحانه وتعالي، حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقد أورد المؤلف عددًا من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم وقد شهدوا جميعًا أن الآيات القرآنية لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي، ومن خالق لهذا الكون.

وفي الفصل السادس، وضح المؤلف أن في كل شيء دليلًا على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته.

وكما قال الشاعر

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وأرى أن هذا الكتاب لسان حق ونداء صدق يصل قارئه إلى تثبيت الإيمان في قلبه ويرد على الملحدين، ويفحم الذين يدعون – زورًا وبهتانًا – أنه لا توجد أدلة مادية في الكون على وجود الله تعالي، فجزي الله الإمام الجليل فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي خير الجزاء على جهوده العلمية التي تذكر فتشكر إنه سميع قريب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأجمعين.

الأستاذ الدكتور
أحمد عمر هاشم
عضو هيئة كبار العلماء

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على أشرف الخلق صاحب المقام المحمود والحوض المورود، عليه وعلى آله وصحبه وسلم – أما بعد:

فالله –سبحانه وتعالى– وضع في كونه كله آيات تنطق بوجوده، وتنطق بعظمته، وتنطق بأنه هو الخالق.. الجماد يشهد أن لا إله إلا الله.. والنبات يشهد أن لا إله إلا الله.. والحيوان يشهد أن لا إله إلا الله.. والإنسان يشهد أن لا إله إلا الله.. وكل هذا يشهد بأدلة ناطقة لا تحتاج حتى إلى مجرد البحث والتفكير.

ولقد خاطب الله –سبحانه وتعالى– كل العقول في كل الأزمان فجعل هذه الأدلة التي تنطق بوجوده من أول الخلق.. ثم كلما تقدم الإنسان، وارتقت الحضارة.. وكشف الله من علمه ما يشاء لمن يشاء.. ازدادت القضية رسوخًا وازدادت الآيات وضوحًا.. ذلك أن الله شاء عدله أن يخاطب كل العقول.. فجاءت آيات الله في الكون الناطقة بألوهيته وحده ليفهمها العقل البسيط، والعقل المرتقي في الكون.. ولا أعتقد أن أحدا يستطيع أن يجادل في هذه الأدلة ولا أن ينكر وجودها. ولقد أوجد الله –سبحانه وتعالى– في هذا الكون أدلة مادية وأدلة عقلية وأدلة نصل إليها بالحواس.. كلها تنطق بوحدانية الله ووجوده.

ولقد جعل الله الأدلة الأولى لإدراك وجوده في العقل، العقل هو الذي يدرك وجود الله.. بالدليل العقلي الذي وضعه الخالق في الكون.. ولكن مهمة العقل بالنسبة لهذا الوجود محدودة.. ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقا مدبّرًا قادرا.. ولكننا بالعقل

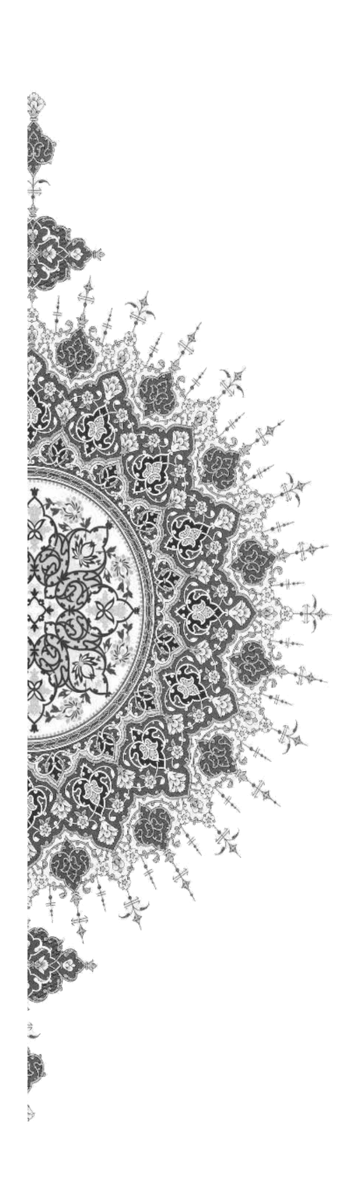


لا نستطيع أن ندرك ماذا يريد الخالق منا.. وكيف نعبده.. وكيف نشكره.. وماذا أعد لنا من جزاء.. يثيب به من أطاعه، ويعاقب به من عصاه.. فهذا كله فوق قدرة العقل .

ولذلك كان لابد أن يرسل الله الرسل ليبلغونا عن الله.. لماذا خلق الله هذا الكون.. ولماذا خلقنا.. وما هو منهج الحياة الذي رسمه لنا لنتبعه؟.. وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب؟.. فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا. وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا إلى شيء .

وجاء الرسل ومعهم المعجزات من الله بصدق رسالاتهم ومعهم المنهج.. وقاموا بإبلاغ الناس ولكننا لن نتحدث هنا عن معجزات الرسل وعما جاءوا به ولن نتكلم عن أي شيء غيبي، ولكننا سنتحدث عن الماديات وحدها.. ونتكلم عن الأدلة المادية، بما فيها تلك الأدلة التي ترينا فتجعلنا نوقن أن الغيب موجود.. وأن ما لا نراه يعيش حولنا.. كل هذا بالعقل وليس بالإيمان.

فالله -سبحانه وتعالى- وضع الدليل الإيماني في الكون كما وضع الدليل العقلي.. ولكننا سنحتكم للعقل وحده.. ليرى الناس جميعا أن الاحتكام للعقل يعطينا آلاف الأدلة من آيات الله التي تشهد أنه لا إله إلا الله ..



الفصل الأول
أسباب الوجود

الدليل الأول: الخلق

دحض شبهات ومفتريات

خالق كل شيء

التحدي

طلاقة القدرة والقوانين الكونية

مظاهر طلاقة القدرة في الإنسان

طلاقة القدرة في النبات

طلاقة القدرة في الحيوان

طلاقة القدرة في الجماد

الدليل الأول: الخلق

إذا أردنا أن نبدأ بالأدلة المادية فلابد أن نبدأ بالخلق.. ذلك الدليل الذي نراه جميعا أمام أعيينا ليلا ونهارا.. ونلمسه لأننا نعيشه.. فالبداية هي أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولا قبل أن يخلق الإنسان.. وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها.. فلا أحد يستطيع أن يقول إن خلق السموات والأرض تم بعد خلق الإنسان.. بمعنى أن الإنسان جاء ولم تكن هناك أرض يعيش عليها.. ولا شمس تشرق.. ولا ليل ونهار.. ولا هواء يتنفسه.. بل إن الإنسان جاء وكل شيء قد أعد له قبل أن يأتي وقبل أن يوجد، وليس فقط أن كل شئ قد أعد له.. بل إن هناك أشياء أكبر من قدرة الإنسان خلقت وسخرت لتخدمه وتعطيه كل متطلبات الحياة بدون مقابل.. وأشياء أخرى خلقت وسخرت للإنسان تعطيه ما يشاء، ولكنها محتاجة إلى جهد الإنسان وعمله، وذلك حتى تتم عمارة الأرض.

إذن فباستخدام العقل وحده لا أحد يستطيع أن يجادل أن هذا الكون قد خلق وأعد لحياة الإنسان قبل أن يخلق الإنسان نفسه.. فإذا جاء الحق -سبحانه وتعالى- وقال لنا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٩)



لا يستطيع أحد أن يجادل عقليا في هذه القضية.. لأن الكون تم خلقه قبل خلق الإنسان.. فكيف يكون للإنسان عمل قبل أن يوجد ويخلق.. وتأتي الآية الكريمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)

نقول إن هذا يؤكد الحقيقة بأن الكون أعد للإنسان قبل أن يخلق.. وهذه قضية يؤكدها العقل.. ولا يستطيع أن يجادل فيها.

نكون بذلك قد وصلنا إلى النقطة الأولى، وهي أن الله -سبحانه وتعالى- بكمال صفاته وقدرته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه.. ولا محتاج لأحد من عباده.. وأننا نحن جميعا - أي البشر - قد جئنا إلى كون معد لنا إعدادا كاملا.

ولكن قدرة هذا الكون لا تخضع لنا ولا لقدراتنا. بل هي أكبر من هذه القدرات بكثير.. فالشمس مثلا أقوى من قدرة البشر جميعا.. وكذلك الأرض والبحار والجبال.. إذن فلابد أن تكون هذه الأشياء قد أخضعت لنا بمقدرة من خلقها وليس بقدرتنا نحن. ذلك أنها مسخرة لنا لا تستطيع أن تعصي أمرا... فلا الشمس تستطيع أن تشرق يوما وتغيب يوما حسب هواها لتعطي الدفء ووسائل استمرار الحياة لمن تريد.. وتمنعه عمن تشاء.. ولا الهواء يستطيع أن يهب يوما ويتوقف يوما.. ولا المطر يستطيع أن يمتنع عن الأرض فتنعدم الحياة ويهلك الناس.. ولا الأرض تستطيع أن

تمتنع عن إنبات الزرع.. لا شيء من هذا يمكن أن يحدث.. ولا تستطيع البشرية كلها أن تدعي أن لها دخلا في مهمة هذا الكون.. لأنه لا خلق هذه الأشياء ولا استمرارها في عطائها يخضع لإرادة البشر.

فإذا جئنا إلى الإنسان وجدناه هو الآخر لابد أن يشهد بأن له خالقا وموجدا.. فلا يوجد من يستطيع أن يدعي أنه خلق إنسانا.. ولا من يستطيع أن يدعي أنه خلق نفسه.

دحض شبهات ومفتريات

إذن فقضية الخلق محسومة لله -سبحانه وتعالى- لا يقبل فيها جدل عقلي.. فإذا جاء بعض الناس وقالوا إن هذا الكون خُلق بالمصادفة.. نقول إن المصادفة لا تنشئ نظاما دقيقا كنظام الكون.. لا يختل رغم مرور ملايين السنين .

وإذا جاء بعض العلماء ليدعي أنه كانت هناك ذرات ساكنة ثم تحركت وتكثفت واتحدت.. نقول من الذي أوجد هذه الذرات.. ومن الذي حركها من السكون.. وإذا قيل إن الحياة بدأت بخلية واحدة في الماء نتيجة تفاعلات كيماوية.. نقول من الذي أوجد هذه التفاعلات لتصنع هذه الخلية؟

ونحن لن ندخل مع هؤلاء في جدل عقيم.. وإنما نقول لهم إن من إعجاز الخالق.. أنه أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا.. وأنبأنا أكثر من ذلك أن هؤلاء مضلون.. أي ليسوا على حق، ولكنهم على ضلال.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ (سورة الكهف: الآية ٥١)

وهكذا نرى من يأتي ليضل الناس بنظريات كاذبة عن أصل خلق السموات والأرض.. وأصل خلق الإنسان.. ومن يدعي أن أصل الإنسان كان قردًا.. وهي

نظرية يملؤها الغباء.. فنحن لم نشهد قردًا تحول لإنسان.. وإذا كان أصل الإنسان قردًا.. فلماذا بقيت القرود على حالها حتى الآن، ولم تتحول إلى بشر.. ومن الذي منعها أن يحدث لها هذا التحول مادام قد حدث في الماضي؟

ولقد نسي هؤلاء أن الوجود لابد أن يكون من ذكر وأنثى وإلا انقرض النوع.. وهؤلاء لم يقولوا لنا عندما ادعوا أن قردا تحول إلى الإنسان.. من أين جاء القرد الذي تحول إلى امرأة ليتم التكاثر..

وبدون الدخول في جدل لا يفيد.. نقول لهؤلاء جميعا.. لقد جئتم مثبتين للإيمان ومثبتين لكلام الله.. فلو أنه لم يأت من يضل بنظريات كاذبة في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان.. لقلنا: إن الله –سبحانه وتعالى– قد أخبرنا في القرآن الكريم.. أنه سيأتي من يضل في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان، ولكن لم يأت أحد يفعل ذلك.. ولكن كونهم جاءوا وكونهم أضلوا.. يجعلنا نقول سبحان ربنا.. لقد أخبرنا عن المضلين وجاءوا فعلا بعد قرون كثيرة من نزول القرآن.. فكأن هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا قضية الإيمان.. قد أثبتوها وأقاموا الدليل عليها.

على أننا نقول لكل من جاء يتحدث عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان مدعيا أن الله ليس هو الخالق.. نقول له أشهدت الخلق؟.. فإذا قال: لا.. نسأله: ففيم تجادل؟

على أن قضية الخلق محسومة لله -سبحانه وتعالى- لأنه هو وحده سبحانه الذي قال إنه خلق.. ولم يأت أحد ولن يجرؤ أحد على أن يدعي أنه الخالق.. وإذا كان من يفعل شيئا يحرص على الإعلان عما فعل.. حتى لا يوجد شيء صغير اخترعه البشر في الدنيا.. إلا وحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه.

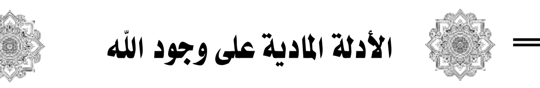
خالق كل شيء

فإذا كان ذلك الذي اخترع المصباح قد حرص على أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه.. أيكون الذي أوجد الشمس غافلا عن أن يخبرنا أنه هو الذي خلقها.. وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدت أفلا تعلن عن نفسها؟

إذن فقضية الخلق محسومة لله -سبحانه وتعالى-.. لأنه وحده سبحانه الذي قال: إنه خلق.. حتى يأتي من يدعي الخلق.. ولن يأتي.. فإن الله سبحانه هو وحده الخالق بلا جدال.. وحتى الكفار لم يستطيعوا أن يجادلوا في هذه القضية.. ولذلك يأتي القرآن في سورة العنكبوت فيقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٦١) ثم يقول الحق تبارك وتعالي :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (سورة العنكبوت: الآية ٦٣)

وهذه الآيات نزلت في الكافرين والمشركين.. وهم رغم كفرهم وإشراكهم لم يستطيعوا أن يجادلوا في خلق الكون والإنسان.

إذن فقضية الخلق محسومة لله.. لأنه -سبحانه وتعالى- هو الذي خلق.. وهو الذي أخبرنا بأنه هو الذي خلق .



ولكن القضية لا تقف عند الكون وحده.. بل تمتد إلى كل ما في الدنيا، حتى تلك الأشياء التي يقدر عليها الإنسان.. فأصل الوجود كله.. بكل ما فيه: مِنْ خلق الله – سبحانه وتعالى–.. والله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ (سورة الأنعام: الآية ١٠٢)وما دام الحق –سبحانه وتعالى– قد قال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فما من شيء في هذا الوجود إلا هو خالقه .

ولنأخذ هذه القضية في كل ما حولنا.. في كل ما في هذا الكون.. لنأخذ مثلا الخشب.. شجرة الخشب التي تعطينا كل الأخشاب التي نستعملها في بيوتنا وأثاثنا إلى غير ذلك.. هذه الشجرة من أين جاءت؟.. تسأل تاجر الخشب من أين جاءت؟.. يقول من السويد.. وتسأل أهل السويد يقولون من الغابة.. وتذهب إلى الغابة فيقولون لك من شتلات نعدها.. وتسأل من أين جاءت هذه الشتلات؟.. من جيل سابق من الأشجار.. والجيل السابق من جيل سبقه.. وتظل تمضي حتى تصل إلى الشجرة الأولى التي أخذ منها هذا كله.. من الذي أوجد الشجرة الأولى؟.. إنه الله.. فلا أحد يستطيع أن يدعي أنه خلق الشجرة الأولى أو أوجدها من عدم .

فإذا انتقلنا إلى باقي أنواع الزرع لنبحث عن التفاحة الأولى والبرتقالة الأولى.. والتمرة الأولى.. وحبة القمح الأولي وشجرة القطن الأولى.. تجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض.. كلها من خلق الله خلقا مباشرا.. ثم بعد ذلك استمر وجودها

بالأسباب التي خلقها الله في الكون.. قد يقال إن هناك تهجينا وتحسينا.. وخلطا بين الأنواع لتنتج نوعا أكثر جودة.. نقول إن هذا كله لا ينفي أن الثمرة الأولى مخلوقة خلقا مباشرا من الله.. وقد يدعي بعض العلماء أنهم جنوا أو استنبطوا أنواعا جديدة.. نقول لهم كل هذا لا ينفي أن الوجود الأول من الله.. وأنهم استخدموا ما خلق الله بالعلم المتاح من الله في كل ما فعلوه.. ولكن أحدا لا يستطيع أن يدعي أنه أوجد أي شيء في الأرض من عدم.. فكل هذه الاكتشافات العلمية هي من موجود.. ولا يوجد اكتشاف علمي واحد من عدم

وإذا انتقلنا من النبات إلى الحيوان.. نجد أن كل الحيوانات والطيور والحشرات بدأت بخلق من الله –سبحانه وتعالى–.. وبخلق من ذكر وأنثي.. وهذه هي بداية الخلق جميعا.. ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه خلق من عدم ذكرا وأنثى من أي نوع من النبات أو الحيوان.. والله –سبحانه وتعالى– يلفتنا في القرآن الكريم فيقول: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (سورة الذاريات: الآية ٤٩).

التحدي

هل جاء أحد المخترعين وقال لنا إنه أوجد من عدم؟ أو أنه خلق ذكرا وأنثى من أي شيء موجود في هذا الكون؟ وما أكثر الموجودات في كون الله.. لا أبدا، لم ولن يأتي وهنا تأتي الحقيقة القرآنية تتحدى في قوله –تعالى–: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الآية ٧٣ من سورة الحج)

هذا هو التحدي الإلهي الذي سيبقى قائماً حتى يوم القيامة.. فلن يستطيع علماء الدنيا ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة.

ولقد وصل الإنسان إلى القمر، وقد يصل إلى المريخ، وقد يتجاوز ذلك.. ولكنه سيظل عاجزا عن خلق ذبابة مهما كشف الله له من العلم.. ولن يعطيه القدرة على خلق ذبابة.. وهذا من إعجاز الله.. لأنه وحده الذي خلق كل شيء، والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض، ولكنه ليس موجدا لشيء.. ولذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ (من الآية ١٠٢ من سورة الأنعام)

بهذا نكون قد أثبتنا بالدليل العقلى أن الله خالق كل شيء في الدنيا.. فإذا كان الله قد خلق من هم دون الإنسان من نبات وجماد وحيوان فكيف بالإنسان بما له من إدراكات وعقل وفكر وتمييز.. سنتحدث عنه تفصيلا في فصل قادم.. ولذلك يقول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾ (الآية ٣٥ من سورة الطور)

وإذا كان كل شيء في هذا الكون من خلق الله –سبحانه وتعالى–.. فإن قوانين الكون أيضا.. تلك القوانين التي يسير عليها الكون هي من وضع الله –سبحانه وتعالى–.. إلا ما شاء الله أن يجعل للإنسان فيه اختيارا.. فالقوانين التي يمضى عليها الكون هي من وضع الله.. والأسباب التي تتم بها الأشياء هي من وضع الله.. فالشمس والقمر والنجوم والأرض لا تتبع قوانين البشر.. بل تتبع القانون الإلهي.. والذي خلقها وضع لها القانون الأمثل لتؤدى مهمتها في الكون .

فالشمس لها حركة كونية.. ولها تحرك آخر في فلك خلقه الله لها.. وكذلك القمر، وكذلك الأرض.. وكذلك الرياح وكذلك النجوم.. ولذلك يقول الحق –سبحانه وتعالى– : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ * ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ * وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ (لآية من ١ إلى ٧ من سورة الرحمن)



إذن الشمس والقمر والنجوم تتحرك بحساب دقيق، فلا تتأخر الشمس عن موعد شروقها ثانية ولا تتقدم ثانية منذ ملايين السنين.. وكذلك القمر في دورته الشهرية.. وكذلك النجوم في حركتها.. ثم يقول الحق -سبحانه وتعالى-:

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾
(الآية ٤٠ من سورة يس)

أي أن كل هذه الأجرام لها فلك معين أو مسار معين تمضي فيه بإذن الله، لا تستطيع البشرية كلها أن تؤخر شروق الشمس ثانية، أو أن تقدمها ثانية.. أو أن توقف دوران الأرض أو تسرع بها أو تبطئ إلى غير ذلك .

إذن فثبات قوانين الكون دليل على دقة الخالق وإبداعه وعظمته وقدرته.. وهذا مالا يستطيع أحد أن ينكره.

طلاقة القدرة والقوانين الكونية

يأتي الفلاسفة ليقولوا: إن الثبات وحده لا يعطى القدرة الكاملة للحق –سبحانه وتعالى– .. ذلك أن الإله بقدرته لابد أن يستطيع أن يخرج عن ميكانيكيته.. فذلك هو دوام القدرة أو طلاقة القدرة.. أما بقاء الثابت على ثباته.. فإن ذلك قد يعطي الدليل على دقة القدرة وإبداع الخالق.. ولكنه لا يعطى الدليل على طلاقة القدرة.

نقول إن الله قد أعطى في كونه الدليل على طلاقة القدرة.. ولكنه لم يعطه في القوانين الكونية.. لأنه لو أعطاه في القوانين الكونية فأشرقت الشمس يوما، وغابت أياما.. ودارت الأرض ساعات وتوقفت ساعات.. وتغير مسار النجوم لفسد الكون.. إذن فمن كمال الخلق أن تكون القوانين الكونية بالنسبة للنظام الأساسي للكون ثابتة لا تتغير، وإلا ضاع النظام، وضاع معه الكون كله.. فلا يقول أحد إن ثبات النظام الكوني يحمل معه الدليل على عدم طلاقة القدرة.. بل هو يحمل الدليل على طلاقة القدرة التي تبقى هذا النظام ليصلح الكون ..

والله –سبحانه وتعالى– لا يريد كونا فاسدًا في نظامه.. ولكنه يريد. كونا يتناسب مع عظمة الخالق وقدرته وإبداعه.. فيبقى بطلاقة قدرته الثبات في قوانين هذا الكون.. ويظهر بطلاقة قدرته الثبات في قوانين هذا الكون.. ويظهر بطلاقة قدرته أنه قادر على أن يغير، ويخرق النواميس بما لا يفسد الحياة في الكون.. ولكن بما يلفت خلقه إلى طلاقة قدرته .

مظاهر طلاقة القدرة في الإنسان

ولنتحدث قليلا عن طلاقة قدرة الله في كونه.. أول مظاهر طلاقة القدرة هي المعجزات التي أيد بها الله رسله وأنبياءه.. ولكننا لن نتحدث عنها هنا فنحن مع العقل وحده.. لنؤكد بالدليل العقلي أن كل ما في هذا الكون يؤكد أنه لا إله إلا الله.. وأنه هو الخالق والموجد.. نأتي إلى الأشياء التي تنطق بطلاقة القدرة وهي في كل شيء.. وإذا جاز لنا أن نبدأ بالإنسان فإننا نبدأ بميلاد الإنسان أولا.. الإنسان ككل شيء في هذا الكون يوجد من ذكر وأنثى.. فإذا اجتمع الذكر والأنثى جاء الولد.. مصداقا لقوله -سبحانه وتعالى- : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الشورى)

إذن: الله -سبحانه وتعالى- جعل في قوانين الأسباب أنه متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد.. ولكن أبقى لنفسه -سبحانه- طلاقة القدرة فجعل هناك ذكرا وأنثى يتزوجان أعواما طويلة ولا يرزقان بالولد.. فمع قوانين الأسباب كانت هناك طلاقة القدرة.. ولم يجعلها الله -سبحانه وتعالى- عامة.. بل جعلها في أمثلة قليلة لتلفتنا إلى طلاقة قدرته.. حتى لانحسب أننا نعيش بالأسباب وحدها. .

ولم تقف طلاقة قدرة الله في خلق الإنسان عند هذا الحد.. بل تعدت لتشمل كل أوجه الخلق.. فالأصل في الإيجاد من ذكر وأنثى.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- بطلاقة قدرته خلق إنسانا بدون ذكر أو أنثى وهو آدم عليه السلام.. وخلق من ذكر بدون أنثى وهي حواء.. خلقها من ضلع من آدم عليه السلام.. وخلق إنسانا من أُنثى بدون ذكر وهو عيسى -عليه السلام-.. وهذه كلها حدثت مرة واحدة لإثبات طلاقة القدرة.. وهي لا تتكرر.. لأنها تلفتنا إلى طلاقة قدرة الله -سبحانه وتعالى- .. وأنه ليس على قدرته قيود ولا حدود.. فهو -جل جلاله- خالق الأسباب.. وقدرته تبارك وتعالى فوق الأسباب.. على أن هناك أشياء كثيرة عن طلاقة قدرة الله بالنسبة للإنسان سنتحدث عنها تفصيلا في فصل قادم .

طلاقة القدرة في ظواهر الكون

نأتي إلى طلاقة قدرة الله تعالى في ظواهر الكون.. لو أخذنا المطر مثلا.. الله -سبحانه وتعالى- بأسباب كونه جعل مناطق ممطرة في الكون.. ومناطق لا ينزل فيها المطر.. والعلماء كشف الله لهم من علمه ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة وغير الممطرة .

يأتي الله -سبحانه وتعالى- في لفتة إلى طلاقة قدرته.. فتجد المناطق الممطرة لا تنزل فيها قطرة ماء وتصاب بالجدب، ويهلك الزرع والحيوان، وقد يموت الإنسان عطشا.. بينما هذه المناطق كان المطر ينزل فيها وربما سار في أنهار ليروى غيرها من البلاد التي لاينزل فيها المطر.. فنجد مثلا منابع النيل التي هي مناطق غزيرة المطر.. تأتي فيها سنوات جدب فلايجد الناس الماء.. ونجد بلادا كالولايات المتحدة وبلاد أوروبا يصيبها الجدب في سنوات.. ولا يحدث هذا بشكل مستمر.. بل في سنوات متباعدة.. لو أن هذا المطر ينزل بالأسباب وحدها ما وقع هذا الجدب في المناطق غزيرة المطر.. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى طلاقة قدرته.. وإلى أن الماء الذي ينزل من السماء ليس خاضعًا للأسباب وحدها.. ولكن الذي يحكمه هو طلاقة قدرة الله.. حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملكناها بالأسباب.. ولكن نعرف أن هناك طلاقة قدرة الله -سبحانه وتعالى- هي التي تعطي وتمنع.. وإنه -جل جلاله- فوق الأسباب وهو -سبحانه- المسبب يغير ويبدل كما يشاء.

طلاقة القدرة في النبات

إذا جئنا إلى الزرع.. ذلك الذي فيه عمل للإنسان. نجد مظاهر طلاقة القدرة.. فالإنسان يزرع الزرع والله يعطيه كل الأسباب.. الماء موجود والكيماويات متوافرة. والأرض جيدة.. ثم بعد ذلك تأتي آفة لا يعرف أحد عنها شيئًا، ولا يحسب حسابها، فتقضي على هذا الزرع تماما.. وفي ذلك يقول الحق -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ (الآية ٤٢ من سورة الكهف)

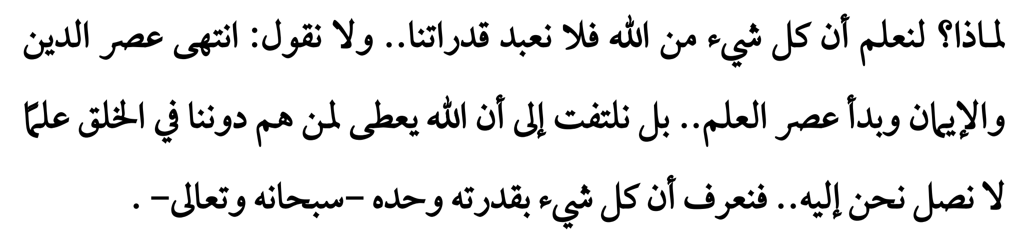
ونحن نعرف أن الآفات تصيب كل مكان في الأرض لا يعلو عليها علم مهما بلغ.. وهكذا حتى نعرف أن الأرض لا تعطينا التمر بالأسباب وحدها.. ولكن بقدرة الله -سبحانه وتعالى- التي هي فوق الأسباب.. فلا نعبد الأسباب وننسى المسبب وهو الله سبحانه وتعالى .

طلاقة القدرة في الحيوان

إذا انتقلنا إلى الحيوان نجد طلاقة القدرة واضحة.. فهناك من الحيوان ما تزيد قوته على الإنسان مرات ومرات.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- قد أخضعه وذلَّله للإنسان.. فتجد الصبي الصغير يقود الجمل أو الحصان ويضربه.. والجمل مثلا يستطيع بضربة قدم واحدة أن يقضي على هذا الطفل ولكنه لا يفعل شيئا ويمضي ذليلا مطيعا ولا يرد على الإيذاء رغم قدرته على ذلك.. ونجد الكلب مثلا يحرس صاحبه ويدافع عنه لأن الله سبحانه – ذلَّله له.. فإذا جئنا إلى الذئب أو الثعلب من نفس فصيلة الكلب نجده يفترس الإنسان ويقتله.. ولو أن هذا التذليل للحيوان بقدرة الإنسان لاستطاع كما زلل الجمل والبقرة والكلب أن يذلل الذئب والثعلب وغيرهما من الحيوانات.. ولكن الله يريد أن يلفتنا إلى أن هذا التذليل بقدرته –سبحانه وتعالى–.. بل إن الثعبان الصغير وهو حشرة ضئيلة الحجم يقتل الإنسان.. دون أن يستطيع أن يذلِّله.. " وهذه علامة من علامات طلاقة القدرة في الكون.. ليلفتنا الحق –سبحانه وتعالى– إلى أن كل شيء بقدرته ومنه.. وليس بالأسباب وليس بقدرة الإنسان.. بل إن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق وهو الذي جعل هذا في خدمة الإنسان.. وهذا يمكن أن يؤذي الإنسان.. وجعل موازين القوة والضخامة تختل.. حتى لا يقال إن هذا الحيوان قوي بحجمه أو بالقوة التي خلقت له.. بل جعل أضعف الأشياء يمكن أن يكون قاتلا للبشر.

طلاقة القدرة في الجماد

ثم نأتي إلى الجماد.. الأرض من طبيعتها ثبات قشرتها حتى يستطيع الناس أن يعيشوا عليها، ويبنوا مساكنهم، ويمارسوا حياتهم.. ولو أن قشرة الأرض لم تكن ثابتة لاستحالت الحياة عليها، ولا ستحالت عمارتها.. والله -سبحانه وتعالى- يريد منا عمارة الأرض. ولذلك جعل قشرتها ثابتة صلبة.. ولكن وفي بعض الأحيان تتحول هذه القشرة الثابتة إلى عدم ثبات.. فتتفجر البراكين ملقية بالحمم.. وتحدث الزلازل التي تدمر كل ما على المكان الذي تقع فيه.. ويتقدم العلم ويكشف الله من علمه لخلقه ما يشاء.. ولكن يبقى الإنسان عاجزا عن أن يتنبأ بالزلازل.. فيأتي الزلزال في أكثر بلاد الدنيا تقدما ليفاجئ أهلها دون أن يشعروا بقرب وقوعه.. بل إنه من طلاقة قدرة الله أنه أعطى بعض الحيوانات.. التي ليس لها عقول تفكر، ولا علم ولا حضارة.. أعطاها غريزة الإحساس بقرب وقوع الزلزال.. ولذلك فهى تسارع بمغادرة المكان أو يحدث لها هياج.. إن كانت محبوسة في أقفاص أو حظائر مغلقة.. وذلك ليلفتنا الله -سبحانه وتعالى- إلى أن العلم يأتي منه ولا يحصل عليه الإنسان بقدرته.. فيعطى لمن لا قدرة له على الفكر والكشف العلمي مالا يعطيه لذلك الذي ميزه بالعقل والعلم.


لماذا؟ لنعلم أن كل شيء من الله فلا نعبد قدراتنا.. ولا نقول: انتهى عصر الدين والإيمان وبدأ عصر العلم.. بل نلتفت إلى أن الله يعطى لمن هم دوننا في الخلق علماً لا نصل نحن إليه.. فنعرف أن كل شيء بقدرته وحده -سبحانه وتعالى- .

ومظاهر طلاقة قدرة الله في كونه كثيرة.. فهو وحده الذي ترد الضعيف على القوى، وينتقم للمظلوم من الظالم.. وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى... على أن طلاقة القدرة في تغيير ما هو ثابت من قوانين الكون إنما يأتي عند نهاية الحياة على الأرض.. حينئذ يغير الله القوانين كلها ويحدث الدمار وتنتهي الحياة.. وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ * عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴾ (الآية من ١-٥ من سورة الانفطار) وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم.. تنبئنا بما سيحدث عندما تقوم القيامة .

إذن الذين يقولون: إن عظمة الله -سبحانه وتعالى- في خلقه هي الثبات والدقة التي لاتتأثر بالزمن.. والتي تبقى ملايين السنين دون أن تختل ولو ثانية واحدة نقول لهم: هذه موجودة وانظروا إلى القوانين الكونية ودقتها وكيف أنها لم تتأثر بالزمن.. والذين يقولون إن عظمة الحق -سبحانه وتعالى- في طلاقة قدرته في كونه.. وألا تكون الأسباب مقيدة لقدرة الخالق والمسبب.. نقول لهم انظروا في الكون وحولكم مظاهر طلاقة القدرة.. وليست هذه المظاهر مختفية أو مستورة.. بل هي ظاهرة أمامنا جميعا..

وليست في أحداث بعيدة عن حياتنا.. بل هي تحدث لنا كل يوم. " وإذا صاح إنسان من قلبه (ربنا كبير).. أو (ربنا موجود).. أو (ربك يمهل ولا يهمل).. فمعنى ذلك أنه رأى طلاقة قدرة الله، تنصف مظلوما، أو تنتقم من ظالم.. أو تنصر ضعيفا على قوى.. أو تأخذ قويا وهو محاط بكل قوته الدنيوية.

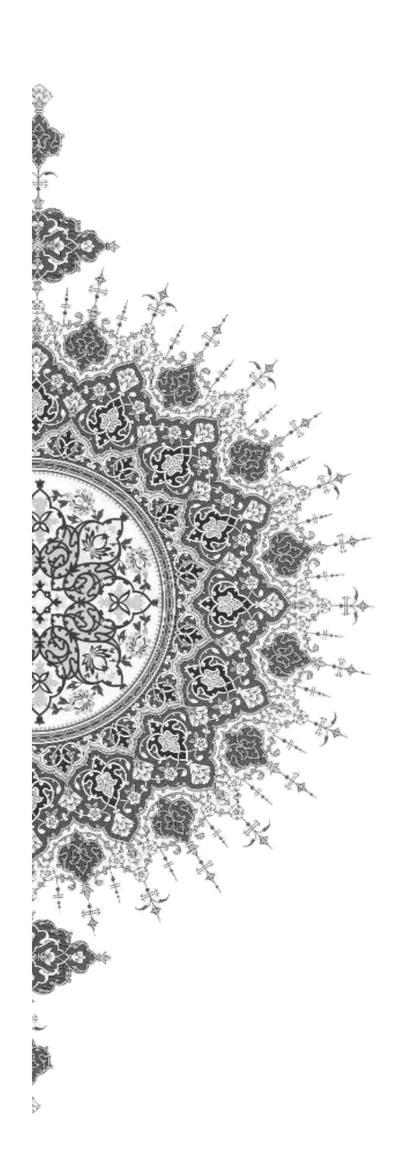
فالإنسان لا يتذكر قدرة الله عندما يرى الكون أمامه يمضي بالأسباب.. ذلك أن هذا شيء عادي لا يوجب التعجب.. فانتصار القوى على الضعيف لا يثير في النفس اندهاشا.. والأجر المعقول للعمل شيء عادي.. والأحداث بالأسباب هو ما يعيشه الناس.. ولكننا نتذكر قدرة الله إذا اختلت الأسباب أمامنا.. وجاء المسبب ليعطينا ما لا يتفق مع الأسباب ولا مع قوانينها .

إلى هنا نصل إلى أننا استعرضنا بعض أسباب الوجود التي تثبت قضية الإيمان بالدليل العقلي.. ولكن الله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الآية ٢١ من سورة الذاريات)

وبعض الناس ينظر إلى نفسه فلا يرى شيئا.. فما معنى هذه الآية الكريمة؟

الفصل الثاني

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾



الدليل الثاني: الميثاق

مقاييس الخير والشر

الإيمان بالغيب

قدرة الله

جسد الإنسان مسخر له بإذن الله

الضحك والبكاء من الله عمل الإنسان بحكمة قدرة خالقه

الإنسان لا يملك حتى اللحظة التي يعيش فيها

من معجزة القرآن

الإعجاز في الخلق

الدليل الثاني: الميثاق

يقول الله -سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (الآية ٢١ من سورة الذاريات)

هذه الآية يمر عليها كثير من الناس دون أن يتنبهوا إلى الفيوضات والمعاني التي تحتويها . . بل إنك إذا سألت إنسانا غير مؤمن ماذا يعرف عن هذه الآية الكريمة . . يقول لك لا شيء في نفسي . . فأنا إنسان أولد وأكبر وأتزوج وأعمل وتنتهي حياتي وأموت . . فماذا في نفسي؟ . . نقول له لو أنك تدبرت لعلمت أن في نفسك آيات وآيات . . ونحن سنذكر في هذا الفصل بعض هذه الآيات، لأن آيات الله في الإنسان كثيرة ومتعددة.

أول شيء هو قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (الآية ١٧٢ من سورة الأعراف)

إذا قرأت هذه الآية يقول غير المؤمن لم نشهد شيئا ولم نر شيئا ولم نحس شيئا.. نقول بل شهدت.. وأنت شهيد على نفسك في ذلك.. كيف؟.. الله -سبحانه وتعالى- عرفنا أنه موجود.. وعرفنا بشهادة ربوبية وليس بشهادة ألوهية.. ومعنى ذلك أن المؤمن والكافر يعلم في نفسه وجود الله.. ولكن الكافر يحاول أن يستر هذا الوجود



ليحقق شهواته وما يريد ولو على حساب حقوق الآخرين.. ولننظر إلى ما أحل الله وما حرم الله.. ثم لننظر إلى النفس البشرية على عمومها لنرى ماذا تفعل.. ولنعرف يقينا أن هذه النفس تعرف ما أحل الله وتستريح له وتنسجم معه.. وتعرف ما حرم الله فيصيبها انزعاج واضطراب وذعر وهي ترتكبه.. وأول الأشياء هو العلاقة بين الرجل والمرأة.

إذا جاءك رجل وقال أريد أن أختلي في حجرة مع ابنتك.. ماذا تفعل به؟.. قد تقتله.. وإن لم تقتله فقد تضربه.. ويعينك على ذلك كل الناس.. استنكار عام من المؤمن وغير المؤمن .

فإذا جاءك هذا الرجل وقال أريد أن أتزوج ابنتك.. تستقبله بالترحاب وتدعو الناس للترحيب به.. وتعلن النبأ على الجميع.. وتعقد القران، وبعد عقد القران تتركه هو وابنتك في الحجرة.. وتوافق على الخلوة بينهما.

ما الفرق بين الحالتين؟ بعض الناس يقول إنها وثيقة الزواج التي تحرر.. فهل الفرق هو الورقة فعلا؟.. لا.. الفرق هو الحلال والحرام.. ما أحله الله وما حرمه.. ما أحله الله ينسجم مع النفس البشرية ويقبله كل الناس.. وما حرمه الله تستنكره كل نفس بشرية وتنفعل ضده .

كيف يحدث هذا؟.. لأنك عرفت يقينا منهج الحق والباطل.. وممن عرفته؟.. من الذي وضعه.. وليس هذا فقط.. بل انظر إلى إنسان في شقة مع زوجته.. مطمئن تماما يدخل أمام الناس إلى بيته.. وإذا طرق الباب قام وفتح للطارق.. وإذا جاء صديق استقبله باطمئنان.. وإذا خرج إلى الشارع أخذ زوجته معه أمام الناس جميعا.. انظر مع نفس الشخص مع زوجة غيره.. يغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يراه أحد.. وإذا طرق الباب انزعج ولا يفتح.. وإذا جاءه صديق أصيب بالذعر.. وإذا خرج إلى الشارع مشي بعيدا عنها .

ما الفارق بين الحالتين؟.. الفارق هو الحلال والحرام اللذان تعرفهما كل نفس، حتى تلك التي لم تقرأ شيئا عن الدين.. لأن الله –سبحانه وتعالى– قال:

﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ (الآية ١٧٢ من سورة الأعراف) فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى أوجه الحياة.. لص يريد أن يسرق. .يتأكد أولا من أن الطريق خال.. ولا يجرؤ أن يفعل ذلك إلا في الظلام أو بعيدا عن الناس.. وبمجرد أن يأخذ ما يريد أن يسرقه ينطلق بسرعة وهو يتلفت يمينا ويسارا خوفا من أن يراه أحد.. ثم يبحث عن مكان يخفي فيه المسروقات.. انفعالات رهيبة في داخله تؤكد أنه يعرف أن ما يفعله إثم وخطيئة.. فإذا كان الإنسان يريد أن يدخل بيته ليأخذ شيئا دخل أمام الناس جميعا ومشي باطمئنان.. وحمل الشيء الذي يريده وهو لا يخشى أن يراه أحد.. ذلك أنه يحس في داخله بأنه يفعل شيئا لا يحرمه الله.. الذي يأخذ رشوة مثلا.. يتلفت حوله يمينا ويسارا ويسارع بإخفائها.. والذي يقبض مرتبه يفعل ذلك أمام الدنيا كلها.

مقاييس الخير والشر

وهكذا كل مقاييس الخير والشر.. مقاييس الخير تنسجم معها النفس البشرية، وتحس بطبيعتها وراحتها.. ومقاييس الشر تضطرب معها النفس البشرية وتحس بالفزع والذعر وهي ترتكبها.. من الذي وضع في النفس هذا إلا أنها تعرف يقينا هذه المقاييس التي وضعها الله لمنهجه في كونه.. ومن الذي أعلم هذه النفس أن هناك مقاييس.. وأن هناك إلها.. إلا أن تكون الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ (١٧٢ من سورة الأعراف) هي التفسير الوحيد لمقاييس الخير ومقاييس الشر التي وضعت فينا بالفطرة.. وبما أن هذا عطاء ربوبية فإن الله -سبحانه وتعالى- يعطيه الناس كل الناس من آمن به ومن لم يؤمن.. ولذلك وجدت في البشر كلهم .

الإيمان بالغيب

نأتي بعد ذلك إلى نقطة ثانية.. الله سبحانه وتعالى غيب. .

وغير المؤمن يقول: أنا لا أومن إلا بما أرى.. أما ما هو غيب عني فلا أومن به لأنني لم أشهده.. والإيمان غير الرؤية.. فأنت إذا رأيتني أمامك لا تقول أنا أومن أني أراك.. لأن الرؤية عين يقين ليس بعدها دلالة.. ولا تقول: أنا أؤمن أنني أجلس مع أصدقائي.. ولا تقول إنى أؤمن أني أرى الشمس مثلا.. ذلك هو عين اليقين. . وهناك علم يقين، وعين يقين، وحق يقين.. فعلم اليقين هو الذي يأتيك من إنسان تثق فيه وفي أنه صادق في كلامه.. فإذا قال لك إنسان مشهود له بالصدق أنا رأيت فلانا يفعل كذا.. فأنت تصدق بوثوقك بمن قال.. فإذا رأيت الشيء أمامك يكون ذلك عين اليقين.. فالذي يقول لك مثلا إن هناك مخلوقًا نادرا في بلدة كذا فأنت تصدقه، لأنك تثق فيه.. فإذا جاء معه بهذا المخلوق وأظهره أمامك أصبح علم اليقين عين يقين.. فإذا لمسته بيدك وتحسسته وتأكدت من أوصافه يكون هذا حق اليقين .

ولذلك فإن الحق -سبحانه وتعالى- حين يخاطب غير المؤمنين عن جهنم يقول:

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾
(الآيات من ٥-٧ من سورة التكاثر)

أي أن كلا منا سيرى جهنم بعينيه في الآخرة.. ثم يقول -سبحانه وتعالى- : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ (الآيات من ٩٢-٩٠ من سورة الواقعة).

أي أن الكفار حين يدخلون النار ويعذبون فيها سيكون ذلك حق يقين.. أي واقعا يعيشونه وليست مجرد رؤية .

هذه هي الرؤية.. أما الإيمان فهو تصديق بغيب.. فأنت تقول.. أنا أومن أن ذلك حدث كما أراك أمامي.. أي أنك لم تشهد ما حدث.. ولكنك وصلت بالدليل والاقتناع إلى أنه قد حدث.. وأصبح في نفسك كيقين الرؤية تماما.

غير المؤمن يقول إن الله غيب وأنا لا أصدق إلا ما أرى.. نقول قبل أن تعلن هذا الكلام تذكر الآية الكريمة﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ :

وأنت في جسدك الروح هي التي تهبك الحياة والحركة.. فإذا خرجت الروح من جسدك سكنت الحركة وانتهت الحياة.

إذن كل منا يعرف يقينا أن هناك شيئا اسمه الروح.. إذا دخل الجسد أعطاه الحياة.. وإذا خرج منه توقفت الحياة.. من منا رأى الروح؟.. بل من منا يعرف أين موقعها من الجسد؟.. هي في القلب الذي ينبض؟.. أو في العقل الذي يفكر؟.. أو في القدم

التي تتحرك؟.. أو في العين التي ترى؟.. أو في الأذن التي تسمع؟.. أين مكانها بالضبط؟.. وما هي الروح؟ ..

أكبر علماء الدنيا لا يعرف عنها شيئا.. حتى ذلك العالم السويسري الذي جاء بالناس وهم يحتضرون ووضعهم على ميزان دقيق.. وعندما أسلموا الروح وجد أن الجسد قد فقد من وزنه بضعة جرامات لحظة خروج الروح.. فأعلن أن الروح لها وزن.. أو أن لها كيانا ماديا وإن كان لا يزيد على جرامات.. نقول إن هذا غير صحيح.. لأن هذه الجرامات قد تكون هي وزن الهواء الذي خرج من الرئتين، ولم يدخل غيره.. أو تكون بسبب توقف سريان الدم بالجسم.

إذن الروح – وهي موجودة في جسدك – غيب عنك.. فأنت لا تعرف ما هي؟.. ولا أين هي؟ وأنت لا تعرف كيفية سريانها في الجسم.. وإلا قل لنا إذا أصيب إنسان في حادث وبترت ساقاه.. أين ذهبت الروح التي كانت في الساقين تعطيهما الحياة والحركة.. ولكنك تستدل على وجود الروح مع أنها غيب عنك بآثارها في أنها تعطي الحياة والحركة لجسدك.. ولكن هل وجود الروح في المخلوق الحي وجود يقيني.. يقول أكبر علماء الدنيا الماديين: نعم.. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الجسد الحي فيه الروح، وأن الجسد الميت قد خرجت منه الروح .

إذن فوجود الروح علم يقين مستدل عليه بآثارها. فهل إذا كان وجود الروح في جسدك يؤكد لك يقينا أنها موجودة مستدلا على ذلك بالحركة والحياة التي تعطيها



في الجسد.. ألا يدل هذا الكون كله بما فيه من إعجاز الخلق على وجود الله يقينا.. ألا تنظر إلى جسدك والروح فيه ثم تنظر إلى الكون لتستخدم نفس القانون.. أم أنك في جسدك لاتستطيع أن تجادل.. وفي الكون بعظمته تجادل؟!.. أليس هذا كذب على النفس واحتقارا لمهمة العقل.. ألا نتدبر في معنى الآية الكريمة:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

قدرة الله

ثم نأتي بعد ذلك إلى النقطة الثالثة.. غير المؤمن يقول:أنا سيد نفسى.. أنا حاكم نفسي أفعل بها ما أشاء.. نقول: هذا افتراء على الله.. فجسدك هو ملك لله.. وهو يفعل فيه ما يشاء إلا ما شاء أن يجعلك فيه مختارا.. وإذا لم تصدق ذلك فانظر إلى جسدك.

القلب ينبض.. فهل أنت الذي تجعله ينبض؟.. وهل تستطيع أن توقفه قليلا ليستريح؟.. أو تجعله إذا توقف أن يعود إلى الحركة مرة أخرى؟.. وكيف يمكن أن يتبع القلب لإرادتك، وهو ينبض، وأنت نائم مسلوب الإرادة.. ومن الذي يعطي الأمر للقلب لكي يقلل نبضاته وأنت نائم، لأنك متوقف عن الحركة.. ويجعله يسرع في النبض وأنت تقوم بأي مجهود محتاج إلى سرعة حركة الدم في الجسم. .

وحركة التنفس هل أنت الذي تقوم بها؟ وإذا قلت نعم فكيف تتنفس وأنت نائم؟.. إنها حركة تتم بالقهر لا سلطان لك عليها.. فإذا صدر لها الأمر الإلهي بأن تتوقف فلا أحد يستطيع أن يعيدها.

ومعدتك وما يحدث فيها من تفاعلات لهضم الطعام وإنزيمات تفرز من غدد متعددة.. أيتم هذا بإرادتك؟

وأمعاؤك وحركة الطعام فيها وامتصاص ما يفيد الجسم وطرد ما لايفيده.. أيحدث هذا بإرادتك أم أنها تتم دون أن تدري.. وكرات الدم البيضاء وهي تتصدى للميكروبات التي تدخل جسدك فترسل كرات معينة لتحدد ما يمكن أن يقضي على الميكروبات.. ثم يقوم النخاع بتصنيع المواد المضادة فتقضي على الميكروب فعلا.. أتدري أنت شيئا عن هذه العملية؟.. إن كل هذا مقهور لله –سبحانه وتعالى–.. يقوم بعمله دون أن يتوقف.. ودون أن تدري أنت عنه شيئا. ومن رحمة الله –سبحانه وتعالى–.. أنه خلق هذه الأجهزة البشرية مقهورة له.. وإلا لما استطاع الإنسان الحياة، ولا العمل، ولا أداء مهمته في عمارة الكون.. وإلا فقل لي بالله عليك.. لو أن قلبك يخضع لإرادتك كيف يمكن أن تنام؟.. إنك ستظل يقظا ليستمر القلب في النبض.. لو أن معدتك تخضع لإرادتك لاحتجت إلى ساعات طويلة بعد كل وجبة لتتم عملية الهضم.. لو أن الدورة الدموية تخضع لإرادتك.. لما استطاع عقلك أن يستمر في الحياة وهو مشغول بمئات العمليات التي تتم كل دقيقة .

وهكذا شاءت رحمة الله أن يجعل كل هذا بالقهر حتى تستطيع الحياة والسعي في الأرض، وحتي يمكنك أن تتمتع بحياتك .

إذن لا تقل أنا حر في جسدي.. أو جسدي خاضع لي.. فهذا غير صحيح علميًا وبالدليل المادي. فأنت مقهور في كل أجهزة جسدك.. حتى تلك التي أخضعها الله لإرادتك فهذا خضوع ظاهري وليس خضوعا حقيقيًا.. ولقد شاءت حكمة الله أن

يرينا هذا في الدنيا أمامنا بالدليل المادي.. فأنت تبصر بعينيك، وحتى لا تغتر وتعتقد أن هذا الإبصار من ذاتك، وإنه خاضع لإرادتك.. أوجد الله -سبحانه وتعالى- من له عينان مفتوحتان ولا يبصر.. وأنت تمشي بقدميك.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- أوجد من له قدمان ولا يستطيع أن يمشي.. أنت لك يدان تتحرك وتفعل بهما ما تشاء.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- أوجد من له يدان ولا تستطيعان الحركة.. وأنت تتحدث بلسانك وتسمع بأذنيك.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- قد أوجد من له لسان ولا يقدر على الكلام.. ومن له أذنان ولا يسمع.. كل هذه أمثلة قليلة وضعها الله في الكون.. ليلفتنا إلى أنه ليس لنا ذاتية.. وأن الأمر كله لله .

فإذا كنا نبصر بأعيننا فنحن نبصر بقدرة الله التي أعطت العين قوة الإبصار.. ونمشى بقدرة الله التي أعطت القدمين قوة الحركة.. ونسمع ونتكلم بقدرة الله التي أعطت اللسان قدرة الكلام والأذن خاصية السمع.. ولو كان هذا بذاتية منا.. ما استطاع أحد أن يسلبنا النظر أو السمع أو الحركة أو الكلام .

جسد الإنسان مسخر له بإذن الله

بل إن الله -سبحانه وتعالى- أقام لنا الدليل على أنه حتى حركاتنا الاختيارية لا تتم إلا بقدرته.. مثلا إذا أردت أن تقوم من مكانك.. كم عضلة تنقبض، وكم عضلة تنبسط، حتى تتمكن من القيام؟.. ولكن نقوم من أماكننا ونحن لا ندري أي العضلات تتحرك وأيها لا يتحرك.. بمجرد أن يخطر على بالنا لنقوم هذه العضلة تنبسط، وهذه تنقبض بقدرة الله، وليس بإرادتنا.. العملية التي تتم في عضلات الجسم ساعة القيام.. ليس لنا في حركتها إرادة إلا أننا أردنا أن نقوم.. وكذلك في المشي والجرى وكل حركة تقوم بها.

إذن حركات الجسد كلها خاضعة لنا بإرادة الله -سبحانه وتعالى-.. الله هو الذي أخضعها لما نريد وجعلها تفعل ما نشاء.. وهي لا تفعله، ونحن على علم بذلك.. بل تفعله بشفرة إلهية وضعها الله في أجسادنا.. فتنقبض وتنبسط العضلات فيتم كل شيء ونحن لاندرى .

ثم يقول الإنسان أنا مسيطر على جسدى أفعل ما أشاء.. نقول له لو كنت مسيطرا حقيقة لعلمت ما يجري فيه.. ولكن هذا الجسد مسخر لك بقدرة الله.. ولذلك فهو يفعل لك ما تريد دون أن تدري، أو تحس كيف يتم هذا الفعل..؟

الضحك والبكاء من الله

بل أكثر من ذلك تحديا من الله –سبحانه وتعالى–.. يأتي الحق في كتابه الكريم ويقول: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ (الآية ٤٣ من سورة النجم).

أكثرنا يمر على هذه الآية الكريمة ولا يلتفت إليها.. ولكن هذه الآية فيها إعجاز من الله –سبحانه وتعالى–.. قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾

معناه أن الضحك والبكاء من الله.. وكونه من الله –سبحانه وتعالى– يكون لجميع خلقه.. فالله حين يعطى يعطي الخلق جميعا ذلك هو عدل الله.. فإذا نظرت إلى الدنيا كلها تجد أن الضحك والبكاء موحدان بين البشر جميعا على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم.. فلا توجد ضحكة إنجليزية وضحكة أمريكية وضحكة إفريقية.. بل هي ضحكة واحدة للبشر جميعا.. ولا يوجد بكاء أسيوي أو بكاء استرالي.. وإنما هو بكاء واحد.. فلغة الضحك والبكاء موحدة بين البشر جميعا.. وهي إذا اصطنعت تختلف.. وإذا جاءت طبيعية تكون موحدة.. ولذلك إذا اصطنع أحدنا البكاء أو اصطنع الضحك فإنك تستطيع أن تميزه بسهولة عن ذلك الانفعال الطبيعي الذي يأتي من الله .

ومن العجيب أنك ترى مثلا الفيلم الكوميدي الذي صنع في أمريكا يضحك أهل أوروبا.. والذي صنع في آسيا مثلا يضحك أهل أستراليا.. بل إن هناك من أعطاهم الله موهبة القدرة على إضحاك الناس فيضحكون شعوب الدنيا كلها.. ولعل هناك نجومًا عالمية في فن الكوميديا تضحك العالم كله.. وهناك أفلام عاطفية تبكي العالم

كله.. ففيلم «غادة الكاميليا» مثلا إذا قدمته بأي لغة أبكى الناس.. وهكذا تنزل أحيانا الرحمات من الله تفيض العيون بالدموع.. وأحيانا يريد الله أن يروح عن النفوس فتتعالى الضحكات .

ولكن قد يقول بعض الناس.. إن هناك ما يضحك واحدا ولا يضحك الآخر.. وإن هناك مشهدا يبكي إنسانا في حين تتحجر الدموع في العيون فلا يبكي إنسان آخر في نفس الموقف.. نقول أنت لم تفهم الآية.. فقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾ ليس معناه بالضرورة أن الناس تضحك معا وتبكي معًا.. ولكن معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يضحك نفسه، ولا أن يبكي نفسه بشعور صادق وبلا اصطناع.. ولكن ذلك من الله.. ولذلك استخدمت فيه الإرادة البشرية.. فليس لكل واحد منا ضحكة تميزه.. بل نحن نضحك جميعا بلغة واحدة وليس لكل واحد منا بكاء يميزه، بل نحن نبكي جميعا بلغة واحدة، وليس أي واحد منا قادرا على أن يضحك ضحكة طبيعية بإرادته.. كأن يقول: إنني سأضحك الآن فيضحك.. ولا يستطيع إنسان أن يبكي بكاء طبيعيا كأن يقول: أنا سأبكي الآن فيبكي.. إلا أن يصطنع الضحك أو البكاء بشكل غير طبيعي ولكن يأتي الضحك والبكاء من الله حين يكون طبيعيا.. ولأنه يأتي من الله فهو موحد بين البشر جميعا.. فإذا كنت لا تستطيع أن تضحك نفسك أو تبكي نفسك.. فكيف تدعي أنك سيد نفسك.. ولماذا لا تسلم لخالقك؟

عمل الإنسان بحكمة قدرة خالقه

إذا كان هذا هو الشأن في الجسد البشري.. فآمن بالله الذي هو يملك كل خيوطك.. فإذا كنت لا تؤمن بجنته ولا تريد ثوابه.. فاخش عقابه.. وإذا كنت لا تؤمن بالآخرة فاخش عقابه في الدنيا.. فهو الذي يملك كل خيوط حياتك ويستطيع أن يفعل بك ما يشاء.

على أن الله –سبحانه وتعالى– له لفتات أخرى.. يلفتنا لقدرته وعظمته ووجوده إذا كنت تتأبى على الإيمان بالله وتقول أنا سيد نفسي.. فإذا جاءك قدر الله بالمرض فامنعه عن نفسك، وقل لن أمرض.. وإذا جاءك قدر الله بالموت فامنعه عن نفسك، وقل لن أموت.. وإذا جاءك قدر الله في مكروه كأن تصاب في حادث أو أن تسقط من مكان فتتهشم عظامك فقل لن أسقط .

هذا هو قهر القدرة الذي لا تستطيع أن تقف أمامه.. وتقول سأفعل ولا أفعل.. لأن الله لم يعطك الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل في الأقدار التي تقع عليك.. فقدر الله عليك ينفذ رغم إرادتك.. وأنت خاضع لقدر الله سواء رضيت أو لم ترض -- ففي الكون أحداث تقع لا تملك فيها اختيارا.

بعض الناس يجادل في هذا، ويقول: إن الإنسان القوى يستطيع أن يصنع قدره.. نقول إن القرآن الكريم قد رد على هؤلاء في قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (الآية ٢٦ من سورة آل عمران)

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق -سبحانه وتعالى- :﴿ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾ أي أنه لا يوجد إنسان يتخلى عن الملك أو عن المنصب والجاه بإرادته.. بل لابد أن ينتزع منه انتزاعا.. ولذلك تأتي الثورات والانقلابات.. لتنزع الملك من أولئك الذين اعتقدوا أنهم ملكوا الدنيا.. وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يشاءون بمجرد كلمة أو أمر أو إشارة.. فيأتي الله -سبحانه وتعالى- لينزع منهم هذا رغما عنهم.. فنجد الواحد منهم الذي كان يحتمى به الناس.. عاجزا عن أن يحمي نفسه.. يهرب من مكان إلى آخر.. وتجده وهو المعتز بالدنيا يتمنى لو أخذ الناس كل ما يملك، وأبقوا على حياته.

إن هذا يحدث ليلفتنا الحق -جل جلاله- إلى أنه لا أحد يأخذ الملك أو المركز العالي بإرادته وتخطيطه.. وإنما هي أقدار يجريها الله على خلقه.. فإذا أتى أمر الله نزع منه كل شيء.. ولو كان الأمر بذاته لما استطاع أحد أن ينزعه منه.. ولايوجد إنسان في هذا الكون يستطيع أن يدعي أنه في منعة من قدر الله.. فإذا كانت هذه هي الحقيقة فهي الدليل المادي على أن الإنسان تحكمه قدرة خالقه.. وأنه لا يستطيع لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى فعل الإنسان وعمله الدنيوي.. تجد بعض الناس يقول: إنني سأفعل كذا وكذا.. وسأقوم بتنفيذ كذا.. نقول له إنك أعجز من أن تفعل إلا أن يشاء الله.. فالفعل محتاج إلى زمان.. ومحتاج إلى مكان.. ومحتاج إلى فاعل، ومحتاج إلى مفعول به. وأنت لا تملك شيئا من هذا كله.. فإذا جئنا إلى الفاعل فأنت لا تملك حتى اللحظة التي تعيش فيها.. ولا تضمن أن يمتد بك العمر ثانية واحدة.. حتى ولو كانت كل الشواهد الصحية تدل على ذلك.. ألا يوجد من لا يشكو من شيء، ثم يسقط فجأة ميتا.. ويقال جاءته جلطة في المخ.. أو سكتة قلبية.. أو أصيب بهبوط حاد في الدورة الدموية .

هذه كلها أسباب.. ولكن السبب الحقيقي هو أن الأجل قد انتهى.. مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا﴾ (من الآية ٣٤ من سورة الأعراف) إذن ساعة أن صدر الأمر من المسبب وهو الله جل جلاله انتهى العمر.

الإنسان لا يملك حتى اللحظة التي يعيش فيها

ومن العجيب أنك ترى أكبر أطباء القلب يموتون بأمراض القلب.. وأكبر أطباء المخ تنتهي حياتهم بمرض في المخ.. فإذا ملكت اللحظة التي تعيش فيها.. وبقيت حتى ساعة إتمام الفعل، فإنك قد تصاب بمرض يقعدك عن الحركة، فلا تستطيع إتمام الفعل.. هذا بالنسبة للفاعل .

فإذا جئنا للزمن فأنت لا تملك الزمن، ولكنه هو الذي يملكك.. ولذلك فإنه قد يأتي زمن التنفيذ فتفاجأ بحدث يمنعك.. كأن يصاب ابنك في حادث مثلا.. أو يموت أحد أقربائك.. أو تضطر اضطرارا إلى سفر عاجل لمهمة ضرورية.. أو يقبض عليك في جريمة أو في اتهام.. إذن فأنت لا تملك الزمن ولا تستطيع أن تقول إنني في ساعة كذا سأفعل كذا .

فإذا جئنا للمكان فقد تختار مكانا لتبني فيه عمارة مثلا.. فتأتي لتجد أن المكان قد استولت عليه الدولة لمنفعة عامة أو قد ظهر له ورثة لم تكن تعرفهم فأوقفوا العمل أو أن تقرر أن يقام وسطه طريق.. أو أن الأرض تحتها مياه جوفية تجعلها غير صالحة للبناء .

وإذا جئنا للمفعول به فقد يرفض الذي تطلب منه العمل القيام به.. وقد لا تجد عمالا ليقوموا بالتنفيذ.. وقد لا يأتي المقاول الذي اتفقت معه.. وقد لا يحضر الموظف الذي سيعطيك الرخصة لتبدأ العمل. إذن فأنت لا تملك شيئا من عناصر الفعل

كلها. ولذلك طلب منك الله -سبحانه وتعالى-.. أن تتأدب وتعطي الشيء لأهله، وتنسبه إلى الفاعل الحقيقي.. فقال -سبحانه وتعالى- ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۞ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الكهف).

أي إذا أنساك الشيطان أن القوة الله جميعا فتذكر هذه الحقيقة ولا تتجاوزها .

نأتي بعد ذلك إلى معجزة أخرى في النفس البشرية.. تلك هي معجزة القرآن الكريم.. والقرآن فيه إعجاز كثير.. ولكننا نتحدث هنا عن الإعجاز القرآني في النفس البشرية.. كل إنسان منا له طاقة وقدرة عقلية.. فالمتعلم طاقته العقلية أكبر ممن لم ينل حظا من العلم أو من الأمي.. وهؤلاء جميعا لا يمكن أن يجتمعوا عقلا ليشهدوا شيئا واحدًا.. وكل واحدا منهم ينسجم مع هذا الشيء نفس الانسجام.. فإذا كانت مثلا هناك محاضرة في فرع من العلوم فلا يستطيع أن ينسجم معها إلا ذلك الذي يفهم في هذا الفرع.. أما إذا دخل إليها عدد من الذين لم يقرأوا عن هذا العلم فإن الانسجام يضيع.. ذلك يحدث في كل فرع من فروع الدنيا.. ولكنك إذا جئت إلى القرآن الكريم، وهو كلام الله، تجد أن كل النفوس البشرية المؤمنة تنسجم معه.. لا تجمعها رابطة علم أو ثقافة.. وإنما الذي يجمعها هو رابطة الإيمان.. فتدخل إلى المسجد تجد فيه المتعلم ونصف المتعلم والعالم وقد جلسوا معًا جميعا يستمعون إلى القرآن الكريم.. وتجدهم جميعا منسجمين مع القرآن.. تهتز نفوسهم له.. وترتاح ملكاتهم



إليه.. لا فرق بينهم حتى ذلك الذي لا يعرف معنى ألفاظ القرآن الكريم.. تجده جالسًا يستمع وهو منسجم ويهتز من داخله.. وتقام الصلاة.. فيقف الجميع في انسجام وراء الإمام.. تختفي الفوارق الدنيوية بينهم.. ولكن تجمعهم رابطة الإيمان.. فيصلون جميعا بانسجام.. لأن ملكاتهم التي خلقها الله فيهم منسجمة ومتفقة مع كلام الله.. فلا تلحظ فرقا ولا ترى إلا مساواة إيمانية .

من معجزة القرآن إنه من العجيب أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في العالم الذي يمكن أن يحفظه الإنسان بدون فهم.. فتجد الطفل الصغير عمره سبع سنوات وربما أقل من ذلك.. ومع هذا يحفظ القرآن كله.. أيمكن لهذا الطفل الصغير غير المكلف أن يستوعب معاني القرآن الكريم؟.. بالطبع لا.. ولكن الإيمان الفطري في داخله يجعله يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويتلوه.. لأن هذا الإيمان من الخالق، وهو الله –سبحانه وتعالى–.. والقرآن هو كلام الله –سبحانه وتعالى–.. ولذلك تنسجم النفس البشرية وهي في أولى مراحلها مع كلام خالقها.. أليس هذا إعجازا نقف عنده ليلفتنا إلى الله سبحانه وتعالى–.. وأنه هو الخالق وهو الموجد .

فإذا قال رسول الله ﷺ: «إن الإنسان يولد على الفطرة مسلما، وأهله يهودانه أو ينصرانه».[١]

---

[١] أخرجه البخاري في «صحيحه»، كتاب: الجنائز– باب: إذا أسلم الصَّبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصَّبي الإسلام (٢/ ٩٤ ح رقم: ١٣٥٨)، ومُسلم في «صحيحه» كتاب القدر –باب معنى كل مولود يولد على الفطرة... (٢٦٥٨)(٢٢) كلاهما من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه–

قلنا صدقت يا رسول الله، وأكبر دليل على ذلك هو انسجام فطرة الإنسان مع كلام الله.

بل وأكثر من ذلك، يأتي الله -سبحانه وتعالى- ليرينا أن الإنسان هو هو.. وأنه سيأتي به يوم القيامة.. دون أن يختلط أحد مع أحد.. ويتساءل الذين لا يؤمنون كيف يمكن أن يأتي الإنسان بنفسه يوم القيامة دون أن يختلط أحد مع أحد؟

نقول أن الله -سبحانه وتعالى- رحمة بعقولنا قد أعطانا الدليل في الدنيا.. ولن ندخل في تكوين الإنسان، ولا في أشياء غيبية.. ولكننا نأخذ الدليل المادي وحده فالبشر وهم بلايين.. كلهم مخلوقون على هيئة واحدة.. ولكن كل واحد منهم مميز عن الآخر.. فالأب يعرف ابنه بين ملايين البشر.. والابن يعرف أباه وأمه بين ملايين الرجال والنساء بمجرد النظرة.. بمجرد اللمحة تستطيع أن تخرج ابنك أو أباك أو أمك من بين الناس جميعا.. هذا تمييز للإنسان لا يشترك فيه بقية الخلق.. فأنت لا تستطيع أن تميز بقرة وبقرة.. أو جملا وجملا أو أي مخلوق آخر إلا الإنسا .

ولذلك فإن رعاة الغنم يرقمونها أو يضعون عليها علامات مميزة حتى يعرفوها.. ولكنهم لا يضعون على أولادهم علامات حتى يميزوهم عن غيرهم من ملايين الصغار

الإعجاز في الخلق

وتجد الإنسان مميزًا ببصمة الإصبع.. لا تتشابه بصمة إبهام إنسان مع إنسان آخر رغم وجود بلايين البشر.. ليس هذا فقط.. ولكن لكل منا بصمة رائحة لا تتشابه مع إنسان آخر ونحن لا ندركها.. ولكن كلب الشرطة المدرب هو الذي أعطاه الله مُلكه تمييزها فيشم رائحة الأثر، فيخرج هذا الإنسان من بين العشرات بل المئات.

وكلما أعيدت التجربة قام كلب الشرطة بإخراج نفس الشخص.. بل إنه مع تقدم العلم وجد أنه لكل إنسان بصمة صوت تميزه عن الآخر.. وبصمة فك خاصة بأسنانه.. كل هذا ليلفتنا الحق -سبحانه وتعالى- إلى أنه ميز كلا منا بميزات لا يشترك فيها مع أحد.. حتى يأتي به يوم البعث هو هو نفسه.

بل إن الله -سبحانه وتعالى- وضع فينا العدل بالنسبة لأبنائنا رغما عنا.. فتجد الأب يحب أصغر أبنائه أكثر من الكبار.. لماذا؟.. لأن الابن الصغير مهما امتد العمر بالأب سيقضي في رعاية أبيه سنوات أقل من الكبار.. ولذلك أعطاه حنانا أكبر ليعوضه عن هذه السنوات.. حتى يكون خير الأب وعطفه قد وزعا على أبنائه بالعدل.. فمنهم من أخذ عطفا أقل وسنوات أكثر.. ومنهم من أخذ سنوات أقل وعطفا أكثر .

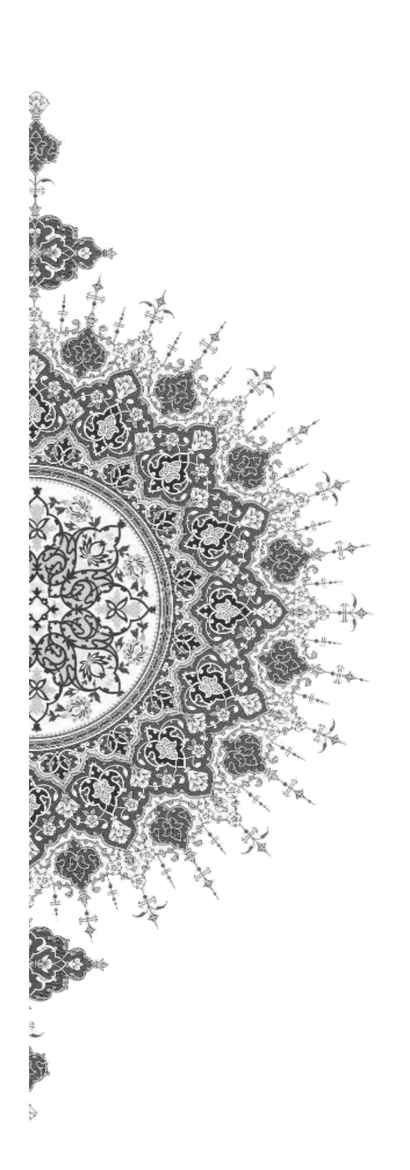
إلى هنا نكون قد وصلنا إلى بيان بعض الفيوضات التي شملتها الآية الكريمة:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

والتي أعطتنا بوضوح الدليل المادي من النفس البشرية بأنها تعرف الله بالفطرة.. وتعرف الخير والشر بالفطرة.. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الآية ٨ من سورة الشمس). وأن هذه النفس بالدليل المادي لا تملك لذاتها نفعا ولا ضرًا إلا ما شاء الله.. وإنها منسجمة مع الإيمان بفطرة خلقها.. ومنسجمة مع كلام الله بفطرتها الإيمانية .

على أن الدليل المادي لوجود الله لا يشمل النفس البشرية وحدها.. بل يشمل كل شيء في الكون.. فكل ما في الكون ينطق بأنه لا إله إلا الله.. وفي كل شيء دليل .

الفصل الثالث
الدليل الغيبي



الغيب النسبي والغيب المطلق

الدليل الثالث: الدليل الغيبي على وجود اللّه من خواص النفس البشرية

من قصة أبي لهب

من تحويل القبلة

من قصة المنافقين

من الحرب بين الفرس والروم

عدم إدراك الشيء لا يعني عدم وجوده

حياة الإنسان شاهدة عليه

وما تحت الثرى

الغيب النسبي والغيب المطلق

قد يكون عنوان هذا الفصل فيه تناقض ظاهري مع موضوع الكتاب.. ذلك أننا لا نتحدث هنا عن الغيب.. ولكننا نتحدث عن الأدلة المادية التي يتحكم فيها العقل وحده ويشهد بها.. ولذلك قد يقال ما دمتم تتحدثون عن الدليل العقلي على وجود الله.. فلماذا لجأتم إلى الغيب.. نقول: إننا لم نلجأ إلى ما هو غيب كالملائكة والجنة والنار، وحياة البرزخ إلى غير ذلك مما يغيب عن عقولنا.. ولكننا نأخذ من الدليل المادي ما يؤكد لنا أن الغيب قائم وموجود.. وأننا إن لم ندركه بعقولنا وأبصارنا.. فليس معنى ذلك أنه غير موجود يؤدى مهمته في الحياة.. ذلك أن وجود الشيء مختلف تماما عن إدراك هذا الوجود.. فقد يوجد الشيء وأنت لا تدركه.. ومع ذلك فهو يؤدى مهمته في الحياة.. ثم تأتي نفحة من رحمة الله تجعلنا ندرك بعقولنا أن ما حسبنا أنه ليس موجودا إنما هو موجود وقائم ويؤدى مهمته .

وقبل أن نبدأ الحديث لابد أن نعرف أن هناك نوعين من الغيب.. غيبا نسبيا وغيبا مطلقا.. الغيب النسبي لا يعتبر غيبا في علم الله وحده.. بل يمكن أن يعرفه البشر.. والغيب المطلق لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

إذا ما هو الغيب النسبي؟.. هو ما لا تعلمه أنت ولكن يعلمه غيرك.. هب أن رئيس دولة ما اختار أحد الناس ليتولى منصب الوزارة.. ولكن هذا الاختيار لم يبلغ صاحبه.. إذن فهو غيب عن صاحبه.. ولكنه معلوم لرئيس الدولة ومكتبه إلى

آخره.. ولنفرض أن لا لصًّا سرق من بيتك شيئا.. أنت حين اكتشفت السرقة لا تعرف من الذي سرق.. ولا أين المسروقات.. ولكن الذي سرق يعرف نفسه ويعرف أين أخفى المسروقات.. إلخ .

إذن هذا غيب نسبي.. أي بالنسبة لك ولكنه معلوم بالنسبة لغيرك.. هذا الغيب قد يعرفه بعض الناس.. ولكن الغيب المطلق لا يعرفه أحد .

الله سبحانه وتعالى كشف لنا أنه يعلم الغيب النسبي والغيب المطلق.. وأعطانا الدليل على ذلك حتى نعرف أن ما سيقع في هذا الكون موجود عند الله، ومعلوم و معدٌ، بحيث يخرج إلى الدنيا بكلمة كن. ولذلك فإننا لابد أن نلتفت إلى آيتين كريمتين في القرآن الكريم.. الآية الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (الآية ٨٢ من سورة يس).

أي أن الله –سبحانه وتعالى– حين يريد أن يظهر لنا شيئا يمارس مهمته في الحياة.. فإنما يقول له كن.. فيخرج بكلمة كن من علم الله –سبحانه وتعالى– إلى كون الله فنعرفه.. في هذه الآية لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى: (يقول له) ومادام الحق –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ فمعنى ذلك أن هذا الشيء موجود.. وإلا لما قال الله ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾.. لأن الخطاب هنا لشيء موجود فعلا .

إذن فكل أحداث الكون وكل أحداث الدنيا والآخرة موجودة في علم الله –سبحانه وتعالى–.. فإذا قال لها: (كن) خرجت إلى علم الناس.. ولذلك فإن يوم البعث مثلا موجود بكل تفاصيله وأحداثه في علم الله.. والجنة موجودة، والنار أيضا موجودة.. فلذلك إذا قيل في الحديث الشريف: «هذا رمضان قد جاء، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار. وتغل فيه الشياطين» [1].

قد يتساءل البعض كيف يحدث هذا والجنة لم تخلق بعد والنار لم تخلق كذلك.. لأن وقتهما لم يأت.. نقول لا.. إنهما مخلوقتان في علم الله بكل ما فيهما.. فإذا جاء وقتهما أظهرهما الله.. وفي هذا يلفتنا الحق –سبحانه وتعالى– في القرآن الكريم:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف).

أي أن الساعة بكل أحداثها موجودة عند الحق –سبحانه وتعالى–.. ولكنه لا يظهرها إلا عندما يشاء.. إذن فكل شيء موجود في علم الله.. وهو يظهره متى شاء وكيف شاء.

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (٥٩/١٢ ح رقم:٧١٤٨) من حديث أبي هريرة– رضى الله عنه– وإسناده صحيح.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (الآية الأولى من سورة النحل).

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى أتى أي حدث باستخدام الزمن الماضي، ثم يقول لا تستعجلوه باستخدام الزمن المستقبل... أليس هذا تناقضا؟

نقول إنه لا يوجد أي تناقض لأن هذا الأمر الذي تتحدث عنه الآية الكريمة أتي في علم الله.. أي تقرر.. ومادام قد تقرر فإنه حادث بلا شك.. لأنه لا توجد قوة ولا قدرة تستطيع أن تمنع ما يريده الله.. والله سبحانه وتعالى دائم الوجود لا تأخذه سنة ولا نوم.. حتى تظن أنه قد يغفل عن شيء.. دائم القوة والقدرة.. وكل من في هذا الكون يستمد قدرته من الله سبحانه وتعالى .

ولذلك مادام الله هو القادر فوق عباده جميعا.. فمتى قال: (أتى) يكون قد حدث فعلا.. أما قوله: (فلا تستعجلوه) أي لا تستعجلوا ظهوره وخروجه إلى دنياكم المادية.. أو لا تستعجلوا ظهوره لكي يصبح مشهودا لديكم.. وهكذا نرى أنه لا يوجد أي تناقض أو تضارب في قوله تعالى: (أتي أمر الله فلا تستعجلوه).

الدليل الثالث: الدليل الغيبي على وجود الله من خواص النفس البشرية

نأتي بعد ذلك إلى الدليل الغيبي على وجود الله.. ونبدأ الحديث بالدليل من الإنسان أولا، ومن الأحداث ثانيا، ومن قضايا الكون ثالثا.. فتلك هي النقاط الثلاث التي سنتحدث عنها في هذا الفصل.. وإن كانت هناك نقاط كثيرة لا يتسع المجال لها.. لأننا سنتناول الدليل الكوني، والدليل الإحصائي، والدليل العلمي وغيره من الأدلة.. ونحن هنا نعطي أمثلة يستطيع الناس أن يقيسوا عليها بعد ذلك.. لأنه كما قلنا كل شيء في هذا الكون يشهد أنه لا إله إلا الله.. ويشهد بالدليل المادي.

إذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية.. فإن الله -سبحانه وتعالى- أعطانا الدليل على أنه يعلم غيب النفس البشرية وما تخفيه.. وإذا أردنا أن نبدأ بالنفس البشرية فإننا نبدأ بأن الله يسيطر على غيب هذه النفس سيطرة كاملة.. ولذلك قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الآية ٧ من سورة القصص).

إذن خواطر النفس البشرية هي في يد الله -سبحانه وتعالى-.. والعقل البشري هو في يد الله -سبحانه وتعالى- يعطيه من الخواطر ما يشاء، ويمنع عنه ما يشاء، ولكن الإنسان خلق حرًا في الاختيار.. نقول: نعم حر فيما أراد له الله أن يكون حرا فيه وهو

المنهج.. ولكنه ليس حرا حرية مطلقة رغم أن الكثيرين ينكرون هذه الحقيقة.. فالإنسان حر.. نعم فيما قال له الله فيه افعل ولا تفعل

..هذا نطاق الحرية الأولى في تطبيق المنهج.. وهو حر في أن ينطق شهادة الإيمان أو أن ينطق شهادة الكفر والعياذ بالله.. وهو حر في أن يفعل ما وضعه الله في منهجه وفي تطبيق هذا المنهج.. ومنهج الله يشمل كل نشاطات الحياة .

فالإسلام ليس مجرد شهادة بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.. تلك هي أركان الإسلام.. الأركان التي بني عليها هذا الدين.

ولكن الإسلام أشمل من ذلك بكثير.. ولكن العقل البشرى فيما لا يخص المنهج خاضع لطلاقة قدرة الله.

(من قصة أبى لهب)

ماهى قصة أبي لهب:؟ نقول اقرأ قول الله سبحانه وتعالى :﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ (سورة المسد).

هذه السورة الكريمة نزلت في أبي لهب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وقد كان كافرا رفض الإيمان.. محاربا لدين الله ورسوله.. نزلت هذه السورة وأبو لهب كافر.. وكثير من صناديد قريش وزعماء مكة كانوا كفارا.. ثم هداهم الله فأسلموا.. مثل أبي سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم.. وكان من الممكن أن يكون أبو لهب من هؤلاء وأن يهتدى للإسلام.. ولو حدث ذلك لانهدمت قضية الإيمان كلها.. لأن القرآن قال إن أبا لهب سيموت كافرا.. ولكن هناك شيئا آخر لابد أن نتنبه إليه.. وهو أن هذا إنباء يفيد بأن أبا لهب سيموت كافرا جاء في أمر اختيارى.. أي يخضع ظاهريا لإرادة أبي لهب .

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبا لهب ذهب إلى مكان يتجمع فيه أهل مكة.. أو دعا زعماء مكة إلى اجتماع.. وقال لهم لقد قال عنى محمد في قرآن ادعى أنه ينزل من السماء.. إنني سأموت كافرا وسأدخل النار، ولكني أقول أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. لتعلموا أن هذا الكلام غير صادق.. وأن محمدا لا يوحى إليه بشىء ..؟!

ماذا كان يمكن أن يحدث.. لو نطق أبو لهب بالشهادتين رياء أو نفاقا ليهدم قضية الدين.. ولكن حتى هذا التصرف الذي كان يمكن أن يخدم قضية الكفر التي كان أبو لهب أكبر أقطابها.. حتى هذا الكلام لم يخطر على عقل أبي لهب ولم يقله.. أليس هذا دليلا على أن ما يريده الله لابد أن يحدث.. أيوجد تحد أكبر من أن يعطى الله أكبر

أعداء الإسلام القضية التي يهدم بها هذا الدين. ثم لا يستطيع أن يستخدمها.. أليس هذا دليلا على أن ما يقضي به الله غيبٌ لابد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك.. وهل يوجد دليل أكبر من ذلك على أن الغيب عند الله لابد أن يقع .

من تحويل القبلة

عندما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة. .نزل القرآن يقول: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (من الآية ١٤٢ من سورة البقرة).

واستخدام حرف السين هنا دليل على أن الأمر لم يحدث بعد.. ولو أنه حدث لقال الله –سبحانه وتعالى– قال السفهاء.. ولكن قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ دليل على أن ذلك سيحدث مستقبلا.. والآية نزلت في غير المؤمنين وتليت عليهم قبل أن يقولوا.. ولو أنهم فكروا قليلا لسكتوا ولم يقولوا شيئا.. وحينئذ كان الناس. سيتساءلون عن قول الله:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ويقولون لم يأت هؤلاء الذين وصفهم الله بالسفهاء ويقولوا ما ولاهم عن قبلتهم).. ولكنهم رغم أنهم يريدون هدم الدين.. ورغم أن الدليل المادي لهدم قضية الإيمان وضع في أيديهم إلا أنه لم يخطر على بالهم أن يمتنعوا عن القول.. بل جاءوا وقالوا.. لنعلم أن أمر الله وغيب الله لابد أن ينفذا مهما كانت هناك إرادة بشرية .

من قصة المنافقين

الحق -سبحانه وتعالى- أعطانا الدليل المادي على صدق قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ (من الآية ٢٢٥ من سورة البقرة)

فالذين لا يؤمنون لا يصدقون هذا الكلام.. ويقولون أين الدليل العقلي على ذلك؟.. نقول إن الدليل العقلى موجود.. فالله -سبحانه وتعالى- أنزل في القرآن الكريم الدليل على أنه يعلم ما في النفس وما يدور فيها.. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الآية الأولى من سورة المنافقون) هذه الآية الكريمة قد نزلت عندما جاء عدد من المنافقين إلى رسول الله ليعلنوا إسلامهم.. ماذا قال المنافقون؟.. قالوا لرسول الله ﷺ: "نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ" (المنافقون: ١)وهذه شهادة حق.. لأن الله -سبحانه وتعالى- يقول والله يعلم إنك لرسوله.. إذن شهادة المنافقين وافقت علم الله -سبحانه وتعالى-.. ولكن الله سبحانه يقول: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾.

كيف يكون المنافقون كاذبين وهم قد شهدوا بما قاله الله -سبحانه وتعالى-؟.. نقول إن الله أراد أن يعلم رسوله.. أن ما تقوله ألسنة هؤلاء المنافقين لا يوافق ما في قلوبهم.. فهم شهدوا لرسول الله -عليه الصلاة والسلام- بالرسالة.. ولكن

بألسنتهم فقط.. أما قلوبهم فهي منكرة لهذه الرسالة مكذبة بها.. وهكذا أعلن ما في صدور المنافقين وما يخفونه عن الناس.. ولم يجرؤوا أن يكذبوا ما أعلنه الله.. والقرآن الكريم فيه آيات كثيرة تعطينا الدليل المادي على أن الله يعلم ما يخفيه الإنسان في صدره ولو لم ينطق به.. وفي ذلك يقول الحق - سبحانه وتعالى -:

﴿ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ﴾ (من الآية ٧ من سورة طه).

والسر هو ما يسر به الإنسان إلى غيره.. والسر دائما يكون بين اثنين.. وما هو أخفى من السر.. أي ما لا ينطق به الإنسان لأحد بل يبقى في صدره لا يعلمه أحد غيره.. الله –سبحانه وتعالى– يأتي ليفضح الكافرين والمنافقين فيقول:

﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾ (من الآية ٨ من سورة المجادلة).

إذن هم لم يقولوا هذا الكلام لأحد.. ولكن قالوه في أنفسهم فقط ولم تنطق به ألسنتهم.. ولا تحركت به شفاههم .

ولكن الله فضحهم وأنبأ بما في صدورهم ولم يستطيعوا أن يكذبوه.. ولو أن هذا كان غير صحيح لقالوا لم نقل شيئا في أنفسنا.. ولكنهم بهتوا بعلم الله –سبحانه وتعالى– فلم يستطيعوا الرد عليه ولو بالكذب.

وهكذا يظهر بالدليل المادي أن الله -سبحانه وتعالى- يعلم ما في الصدور وما تخفي الأنفس ولا تعلنه، وأن الله عليم بما يحرص الإنسان أن يخفيه عن الدنيا كلها.. فعلم الله يمتد إلى غيب النفس البشرية.. وما تحاول أن تكتمه أو تعتقد أن أحدا لا يعلمه.

من الحرب بين الفرس والروم

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بدليل مادي آخر.. على أنه هو عالم الغيب.. وأن ما يقوله حادث ونافذ.. وأن الدنيا كلها لا تستطيع أن تغير قدرا من أقدار الله.. ويعطينا الدليل المادي على ذلك في سورة الروم فيقول تبارك وتعالى ﴿الٓمٓ *غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ *فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ (الآيات من ١-٤ من سورة الروم)وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن أن ينكرها حتى الملحدون.. ولقد نزلت هذه الآية عندما قامت الحرب بين الفرس والروم.. وكانت الدولتان تمثلان أكبر قوة في العالم في ذلك الوقت.. مثل الاتحاد السوفيتي وأمريكا الآن[1].. وقامت الحرب بينهما وهزمت الروم في هذه الحرب.. وعندئذ فرح الكفار لأن الفرس كانوا دولة كافرة تعبد النار.. والروم كانت دولة مسيحية.. أي أهل كتاب وحزن المؤمنون لهزيمة الروم لأن الكفر انتصر على قوم هم أهل كتاب.. وأراد الله -سبحانه وتعالى- أن يطمئن المؤمنين.. ويذهب عنهم الحزن.. فنزلت الآيات الكريمة تبشر بأن الروم سينتصرون بعد بضع سنين.. وفي وقتها راهن المؤمنون الكفار على أن انتصار الروم سيحدث.. وكان من المراهنين سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.. الذي راهن بأربع من الإبل على أن انتصار الروم سيحدث بعد سبع سنين.. ولما مضت هذه

---

[1] كان الاتحاد السوفيتي كتلة واحدة حتى عام ١٩٩٠م.



المدة ولم يحدث شيء، فرح المشركون بذلك، وشق على المسلمين، فذكر ذلك للرسول ﷺ، فقال: ما بضع سنين عندكم؟ فقالوا: دون العشر، فقال لأبي بكر: اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل.. فما مضت السنتان حتى انتصر الروم على الفرس. ففرح المسلمون بذلك. ثم نهى الرسول أبا بكر ونهى الصحابة عن المراهنة.. وقال إن الإسلام لا يقرها ولا يسمح بها[1]

من الذي يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد تسع سنوات؟... وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الروم والفرس عقدا صلحا خلال هذه السنوات التسع.. أو أن الفرس استعدوا استعدادا قويا لهذه الحرب وهزموا الروم مرة أخرى.. ومن الذي يستطيع أن يضمن نتيجة معركة حربية ستحدث بعد هذه الفترة الطويلة.. بل إن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بنتيجة معركة حربية ستحدث بعد لحظات.. بل إن كل قائد لأي معركة حربية يكون واثقا من النصر قبل أن تبدأ المعركة.. أو حتى عندما تبدأ.. فلو علم أي قائد لمعركة حربية أنه سيهزم لما دخلها.

يأتي الله -سبحانه وتعالى- ليعطينا الدليل المادي على أنه يعلم غيب السموات والأرض علم اليقين.. فينبئنا بنتيجة معركة لا بين قوتين محدودتين.. ولكن بين دولتين عظميين.. وينبئنا عن نتيجة هذه المعركة قبل أن تبدأ بتسع سنوات كاملة..

---

(١) أخرجه التِّرمذي في «جامعه»، أبواب تفسير القرآن- باب: ومن سورة الرُّوم (٥/٣٤٣ح رقم ٣١٩٣) من حديث ابن عباس - رضى الله عنه- بنحوه مطولًا -، وقال التِّرمذي عقبه: «هذا حديث حسن غريب».

ويخبرنا من الذي سينتصر ومن الذي سينهزم.. وتأتي الأحداث وتقع الحرب.. وينتصر الروم ويهزم الفرس كما أخبرنا الله –سبحانه وتعالى–.. وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفرس انتصروا على الروم.. والقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة.. وكيف كان يمكن أن يقف المصلون في المساجد ويقرأوا سورة الروم في الصلاة.. مع أن نتيجة الحرب قد اختلفت عما جاء في هذه السورة وهكذا نرى مدى الإعجاز في أن الله –سبحانه وتعالى–.. قد بين لنا الدليل المادي أنه يعلم الغيب.. وأن علمه للغيب علم يقين لابد أن يحدث وأن يتم.. وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها... حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد قبل حدوثها بتسع سنوات.. بل لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها. أليس هذا دليلا ماديًّا على أن الله –سبحانه وتعالى– هو الذي يسير الأمر في كونه.. وهو الذي إذا قال كن فيكون.. أليس هذا دليلا على أن الله –سبحانه وتعالى– إذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (الآية ٨٣ من سورة يس). قول من إله خالق ومسيطر وقادر على كل أحداث كونه.. فإذا عرفنا ذلك بالدليل المادى.. ألا نفهم معنى الآية الكريمة:﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ (النحل: ١) ونصدق يقينا بأن الله –سبحانه وتعالى– وحده هو رب وإله هذا الكون .

عدم إدراك الشيء لا يعني عدم وجوده

على أننا لابد أن ننتقل بعد ذلك إلى نقطة هامة جدا.. وهي أن عدم إدراكنا لوجود الشيء.. لا يعني أن هذا الشيء غير موجود.. فإذا حدثنا الله -سبحانه وتعالى- عن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الشياطين.. فلابد أن نصدق.. ليس بالدليل الإيماني فقط.. لأن القائل هو الله.. ولكنه -سبحانه وتعالى- في تحد أعطى الدليل المادي لغير المؤمن به على أن الغيب موجود وإن لم نكن ندرك وجوده.. وأعطاه لنا من أحداث هذا الكون وما يقع فيه من ماديات.

فإذا أخذنا مثلا الجراثيم، تلك المخلوقات الدقيقة التي تهاجم جسد الإنسان وتصيبه بالمرض.. هذه الجراثيم عاشت مع الإنسان عمره كله.. ولكننا في أول الحياة البشرية وحتى فترة قصيرة لم نكن نعرف عنها شيئا.. ثم تقدم العلم وتوصل العلماء إلى الميكرسكوبات الإلكترونية التي تكبر حجم الشيء ملايين المرات.. فماذا رأينا؟.. رأينا عجبا ميكروبات لها شكل ولها حركة.. ولها حياة ولها تناسل وتكاثر.. ولها طريقة لتخترق جسم الإنسان وتصل إلى الدم.. ولها تفاعلات مع كرات الدم.. عالم كبير لم نكن نعرف عنه شيئا بل كان غيبا عنا منذ مائة سنة.. ومع ذلك.. ومع كونه كان غيبا عنا.. فهل لم يكن موجودا؟.. لا.. بل كان موجودا يؤدى مهمته في الحياة.. وكان العلماء في الماضي يعتقدون أن المرض معناه أن الأرواح الشريرة قد تلبست



جسد الإنسان.. وكانوا يضربون المرضى أو يكوون أجزاء من أجسادهم حتى تخرج هذه الأرواح الشريرة .

ثم تقدم العلم. واستطعنا أن نرى رؤية العين هذه الجراثيم، وهي تتحرك وتتناسل.. وتخترق وتحارب.. بل استطعنا في تجاربنا العلمية أن ندخل هذه الجراثيم إلى أجساد الحيوانات.. لتدرس دورة حياتها وكيفية القضاء عليها .

وهكذا أعطانا الله الدليل المادي على أن ما هو غيب عنا موجود ويؤدى مهمته في الحياة.. وأن عدم إدراكنا لوجوده لا يعنى عدم هذا الوجود .

وإذا نظرنا إلى قطرة الماء الذي نشربه تحت الميكرسكوب لوجدنا فيها أشياء عجيبة.. أشياء فيها حياة ولها حركة.. ولها كيان ولها دور في الحياة.. ولكننا لم نكن نعرف منذ فترة قصيرة أن هذه الأشياء موجودة.. فهل كان هذا شهادة بعدم وجودها.. أم أنها كانت في الحقيقة موجودة.. ولكننا لا ندرك هذا الموجود.

فإذا انتقلنا إلى الكون كله.. وجدناه يشهد أن الوجود شيء وإدراك الوجود شيء آخر تماما.. وأن ما لا ندرك وجوده يؤدى مهمته في الكون فلننظر مثلا إلى الأقمار الصناعية والإرسال التليفزيوني.. هل كان أحد يعرف أن ما يقع في مكان ما في العالم يستطيع العالم كله أن يشهده وفي نفس لحظة حدوثه؟.. طبعا لم يكن أحد يعرف ذلك.

ثم كشف الله -سبحانه وتعالى- لنا من علمه.. ما مكننا من أن نعرف أنه موجود في الكون من الخصائص ما يمكن أن يجعل الإنسان في كل الدنيا يرى ويشهد ما يقع في مكان ما وقت حدوثه.. ويرى الإنسان وهو ينزل على القمر وهو يمشي فوقه.. كيف توصل الإنسان إلى هذا التقدم العلمي؟.. هل اخترع غلافا جويا يستطيع أن ينقل الصور؟.. هل جاء بمواد خارج الأرض.. أو بمواد من خارج خلق الله ليصنع منها الأقمار الصناعية التي حققت هذه الاتصالات؟.. طبعا لا.. ولا يستطيع أن يقول ولا حتى أكبر الماديين أن هذه الخصائص التي استخدمت قد أوجدها الإنسان وخلقها.. ولكن الغلاف الجوي والمواد في الأرض موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها.. ولكن خصائصها كانت غيبا عنا .

وعندما جاءت مشيئة الله لتكشفها لنا وجدنا شيئا عجبا فاستخدمناه فأعطانا ما نحن فيه من تقدم علمي.. أيستطيع أحد أن ينكر خصائص الكون وأنها كانت موجودة.. قبل أن يعلمنا الله كيف نستخدمها وفيم نستخدمها؟! لا يستطيع أي مكابر أن يقول إنها لم تكن موجودة.. بل كانت موجودة ولكنها غيب عنا.. فلما أرادنا الله أن نعلمها كشفها لنا لنعلم أن ما هو غيب موجود.. رغم أننا لم نكن ندرك وجوده.

فإذا نظرنا إلى ما في السموات.. نجد أننا كلما استطعنا أن نصنع ميكرسكوبا أضخم وأقوى.. استطعنا أن نكشف أجراما سماوية جديدة ونراها لأول مرة.. هل كانت هذه الأجرام التي لم نكن نعرف عنها شيئا غير موجودة؟.. أو لم تكن تؤدى مهمتها

في الكون؟.. كانت موجودة وكانت تؤدى مهمتها في الكون.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- أخفى وجودها عنا إلى أجل حدده.. فلما جاء الأجل كشف لنا هذا الوجود فعرفناه حتى نعلم أن ما هو غيب عنا موجود يؤدى مهمته في الكون ولو لم ندرك وجوده.

حياة الإنسان شاهدة عليه

بل إن الله -سبحانه وتعالى-.. أراد أن تكون الحياة الإنسانية كلها شاهدة على أن الغيب موجود.. أرادنا أن نكون شهداء على أنفسنا حتى لا نأتي يوم القيامة.. ونقول: يا رب لم تعطنا الدليل العقلي على أن ما هو غيب عنا موجود.. فضلَّت عقولنا.. يا رب لو أعطيتنا الدليل لكنا آمنا.. ولذلك جاءت حياة البشر كلها شاهدة على ذلك.

فالله -سبحانه وتعالى- أعطى الإنسان وحده القدرة على أن يرث الحضارة ويضيف عليها.. في حين سلب ذلك من كل مخلوقاته.. ولذلك ترى أن حياة الحيوان مثلا كما هي منذ بدء الخليقة لم تتقدم.. فلم نسمع عن أن مجموعة من القرود مثلا قد عقدت اجتماعا لترتقي بوسائل حياتها.. وتبنى لنفسها أماكن مكيفة الهواء تقيها حرارة الجو في المناطق الاستوائية.. ولم نسمع أن مجموعة من الحيوانات القطبية قد جلست معا لتخترع وسائل تدفئة تقيها برد الشتاء القارس الذي يبيدها ويفنيها ويجعلها تتضور جوعا.. ولم نسمع عن مجموعة من الحيوانات جلست تتداول للوصول إلى دواء لمرض يفتك بها.. أو للوصول إلى مبيد الحشرة تنقل لها الأمراض.. بل الرقي في حياة الحيوان أو النبات الذي يصنعه هو العقل البشري .

ولكن الإنسان مختلف عن ذلك تماما.. فالعقل البشري قد أعطاه الله -سبحانه وتعالى- ميزة وراثة الحضارة البشرية.. فكل جيل يبدأ حياته من حيث انتهى الجيل



الذي قبله.. ثم يضيف إليها.. وقدرة العقل البشري على استيعاب التقدم العلمي لا حدود لها.. ولذلك فإن كل جيل من البشر يعرف شيئا كان غيبا عن الجيل الذي قبله.. وكل جيل من البشر يتيح الله -سبحانه وتعالى- له من أسرار ما وضعه في كونه ومن قوانين هذا الكون ما لم يتح للجيل الذي قبله.. وإذا كان هذا الجيل هو جيل الكمبيوتر مثلا.. فإن الجيل القادم سيكشف الله له من أسرار هذا الكون ما يعطيه علما يجعل أجهزة الكمبيوتر الحالية شيئا من مخلفات الماضي.. وهكذا ترتقى الحضارات ..

وكلما تقدم الزمن كانت سرعة ارتقاء الحضارات البشرية أكبر.. لأن إضافات مستمرة تحدث لهذه الحضارات.. وكل إضافة تفتح الطريق أمام إضافة أكبرلماذا أعطى الله -سبحانه وتعالى- البشرية وحدها.. هذه القدرة على الرقىّ الإنساني.. لنعرف جميعا ونحن الذين أُعطِينا الاختيار في أن نؤمن أو لا نؤمن.. لنعرف جميعا أن الجمود الفعلي في أن ما هو غيب عنا غير موجود هو خرافة.. ونحس في حياتنا كل يوم.. بأن هناك غيبا عنا يصبح واقعا معلومًا.. وترى المعجزة تحدث أمام أعيننا مرات ومرات، ونشهدها برؤية اليقين.. علنا أن نتدبر ونفكر قليلا، فنعلم أن الله سبحانه وتعالى بحكمته ورحمته.. قد أعطانا الدليل المادي على أن ما هو غيب عنا موجود.

فإذا أخبرنا بغيب لا ننكره.. ولكننا نؤمن بوجوده.. وبأن قدراتنا الحالية لا تصل إليه.. ولكنها قد تصل إليه في المستقبل.. وفي ذلك يلفتنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (من الآية ٥٣ من سورة فصلت).

ونعرف معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (من الآية ٢٤ من سورة يونس).

وهكذا ونحن نراقب مسيرة الحضارة البشرية نعلم أن الله قد أخبرنا أن هذه الحضارة سترتقي وترتقي بما يكشفه الله لنا من قوانين هذا الكون.. حتى نظن أننا قادرون على أن نفعل ما نشاء في الأرض.. وهذا الظن ليس حقيقة ولكنه مجرد ظن.. لأن الله الذي كشف لنا هذه القوانين لم يخضعها لإرادتنا.. ولكنه سبحانه سخرها لنا فقط لنفعل بها ما نشاء.

فإذا اغتر الإنسان واعتقد أن هذه القوانين من صنعه.. أو أنه أخضعها بذاتية علمه وبدون أمر الله تبارك وتعالى.. يأمر الله -سبحانه وتعالى- هذه القوانين أن تخرج عن أمر الإنسان فتدمره وتقوم الساعة .

وما تحت الثرى

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن دليل غيبى آخر يزيد من الأدلة العقلية التي تثبت وجود الله.. فلابد أن نقرأ قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (الآية ٦ من سورة طه).

فلو قرأنا هذه الآية التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. .لعلمنا أن أحدا لم يكن يدرى شيئا ولفترة طويلة عن معنى: ﴿ وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾.

وكان كل ما تحت الثرى أو ما تحت التراب أو في باطن الأرض هو غيب عنا .

ثم أراد الله –سبحانه وتعالى–.. أن يكشف لنا أن ما هو غيب عنا موجود.. وإن لم نكن ندري بوجوده.. فكشف لنا ما تحت الثرى.. فوجدنا أن ما تحت الأرض يحتوي على كنوز رهيبة.. وجدنا البترول والذهب والمعادن والحديد وأشياء نفيسة.. ووجدنا المياه الجوفية.. وجدنا عالما هائلا يحتوي على مواد لم نكن نعلم بوجودها ولا نعرف شيئا عنها .

وهكذا أعطانا الحق –سبحانه وتعالى– دليلا آخر على أن ما هو غيب عنا موجود.. وإن كنا لا ندرك وجوده.. فلا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يدعي أنه هو الذي أوجد ما في باطن الأرض من كنوز.. ولا أحد مهما بلغ علمه ولا علماء الأرض

مجتمعين يستطيعون أن يدعوا أنهم هم الذين أوجدوا هذه البحيرات الهائلة من البترول.. أو هذه المعادن النفيسة كالذهب بل إن هناك الكنوز تحت الثرى مختفية عن أعيننا تفوق الكنوز التي هي ظاهرة لأعيننا فوق سطح الأرض.. وهذه الكنوز لم تأت من عدم ولم توجد في السنوات الأخيرة.. بل كانت موجودة في باطن الأرض منذ أن خلقها الله -سبحانه وتعالى-.. ولكنها كانت غيبا عنا فلم نكن نعرف بوجودها .

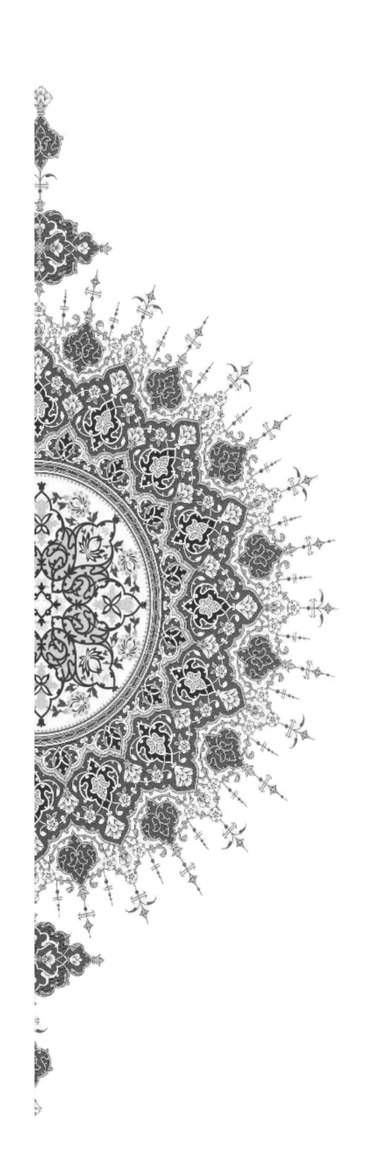
حينئذ نكون قد وصلنا إلى أن الله -سبحانه وتعالى-.. قد أعطانا من الأدلة المادية والعقلية ما يؤكد لنا أن ما هو غيب عنا موجود وإن لم نكن ندرك وجود فإذا حدثنا الله -سبحانه وتعالى- عما هو غيب عنا كالآخرة والحساب والجنة والنار.. لا نقول إن الله يخاطبنا بما لا تستطيع أن تدركه عقولنا.. وأننا لا نستطيع تصديق ذلك.. بل نعود إلى واقع الكون.. ونتأمل ما فيه من آيات.. وما وضعه الله لنا فيه من دلائل.. ولو أننا تدبرنا.. لقلنا يارب لقد أعطيتنا مع الدليل الإيماني الدليل الفعلي الذي يقرب الصورة إلى أذهاننا حتى ندركها.. وليس لنا عذر يارب يوم الحساب.. في أن نقول عقولنا لم تدرك، لأنك وضعت في كونك الأدلة المادية التي تثبت أن الغيب واقع وموجود.. وكان يجب أن تكون هذه الأدلة هي طريقنا إلى الإيمان.. لا طريقنا إلى الكفر والإلحاد.

على أننا سننتقل بعد ذلك إلى الآيات الأرضية.. التي أراد الله –سبحانه وتعالى– أن يلفتنا بها.. إلى أنه لا إله إلا هو الخالق والموجد والقادر .

الفصل الرابع

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾

(الذاريات: ٢٠)



- أفلا يتدبرون ؟!
- قوانين اليقظة والنوم
- سبب التمرد على منهج الله
- الإنسان يكتشف ولا يخلق
- السر وراء محاولة فصل الدين عن العلم
- والأرض مددناها
- ولا الليل سابق النهار
- وجعلنا الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر
- يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل
- دوران الأرض

أفلا يتدبرون؟!

الله -سبحانه وتعالى- له آيات تملأ الأرض والسماء ولكننا غافلون عنها ومن الإعجاز الإلهي أن آيات الله لا تنتهي... فإذا مشيت في الطريق فهناك آيات وإذا صعدت إلى الجبل فهناك آيات.. وإذا نزلت إلى قاع البحر وجدت آيات وإذا صعدت إلى السماء كانت هناك أكثر من آية.. وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وآيات.. هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل.. ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك ومع هذا فقد فتت الصخر ونبتت فيه.. واستطاعت الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك.. مع أنك لو أردت أن تصنع ثقبا في سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة.. فتعرف أن الله -سبحانه وتعالى- الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبتت فيه.. وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء .

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب.. ولكنها تحتاج لمجرد التأمل.. وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأملها لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به.. ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (من الآية ٢٨ من سورة فاطر)

لماذا خص الله العلماء بالخشية؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض.. يرون أسرارًا ودقة خلق وإبداع تكوين.. كان يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله.. أول العابدين لله .

ولكن هؤلاء العلماء الماديين بدلا من أن يفعلوا ذلك.. أخذوا يحاولون النيل من الدين ومن الإيمان.. والإنسان يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون.. ولكنه في الحقيقة لم يصل حتى إلى أسرار نفسه.. بل إنه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل.. ولا ماهو سر هذا الانتقال.



قوانين اليقظة والنوم



الإنسان وهو مستيقظ له قوانين ربما عرفنا بعضها.. ولكنه إذا نام انتقل إلى قانون مختلف تماما مجهول له.. فهو يخرج من الزمن.. فالإنسان وهو نائم لا يحس بالزمن.. فإذا استيقظ فهو لا يعرف كم ساعة نامها ولابد أن ينظر إلى ساعته ليعرف كم ساعة قضاها وهو غائب عن الدنيا .

إذن قانون الزمن لا يسري على النائم فلا يحس بالوقت.. لماذا؟.. لأن الزمن هو قياس للأحداث.. فنحن نقيس الأحداث بالزمن.. والنائم هو خارج عن هذه الأحداث .

والإنسان إذا نام رأى وعيناه مغمضتان.. ومشى وجرى وقدماه لا تتحركان من فوق السرير.. وتحدث ولسانه لم يتحرك.. ورأى وتكلم مع أناس انتقلوا إلى العالم الآخر منذ سنوات.. ومع ذلك فهو يحدثهم ويسمعهم وهم يكلمونه ويفهم مايقولون.. والعلم خارج هذه المنطقة تماما.. فلا يستطيع عالم أن يخبرنا كيف يرى الإنسان وهو نائم.. أو يتحرك أو يلتقي مع أناس انتقلوا للعالم الآخر.. وكل ما جاء عن هذا في محاولات أطلق عليها اسم العلم.. إنما هي تخمينات بلا دليل ومعظمها من الخيال أكثر من الواقع.. ومع أن كل هذا يحدث لكل منا ويحدث كل يوم.. تجد هناك من يعلن بوقاحة.. ويقول انتهى عصر الدين وجاء عصر العلم.. وهؤلاء إنما يقولون بهتانا.. فالله هو الكاشف لعباده عن العلم.. وهو القائل في كتابه الكريم

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ * ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ (الآيات ١، ٢، ٣ من سورة العلق)




سبب التمرد على منهج الله

ولكن الناس لا يؤمنون.. ورغم أن هناك من الأدلة المـادية في الكون ما لا يعد ولا يحصى.. يهدى الناس إلى طريق الإيمان وإلى وجود الله.. وهؤلاء الذين لا يؤمنون بعضهم منكر للدين لأنه يريد أن يكون هو مصدر التشريع .

منهج الله –سبحانه وتعالى– قائم على العدل بين الناس.. وأعطى كل ذي حق حقه.. وهم يريدون أن يتميزوا وأن يأخذوا حقوق غيرهم.. ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يضعوا منهجا من صنعهم.. يعطيهم كل شيء ويسلب غيرهم كل شيء.. والطريقة الوحيدة لذلك هي أن ينكروا منهج السماء.

والقسم الثاني فضل أن يعيش مع النعمة بدلا من أن يعيش مع المنعم.. وهؤلاء الناس الذين متعهم الله –سبحانه وتعالى– بنعمة في الدنيا لم يفكروا كيف جاءت هذه النعم.. ولكنهم أرادوا أن يأخذوا من النعم كل ما يستطيعون.. وأعماهم الطمع الإنساني.. فلم يفكروا إلا في الحصول على نعمة المال أو نعمة السلطة أو غيرها من نعم الكون.. وهؤلاء شغلوا أنفسهم بالمـادة بدلا من أن يفكروا فيمن خلق المـادة.. وأخذوا النعم في أنها حق لهم دون أن يبحثوا عمن أوجدها .

فرغم أن قوانينهم المـادية التي يؤمنون بها.. تقول إنه لا شيء يحدث في الدنيا بدون فاعل.. فلم نجد مثلا عمارة نشأت هكذا دون أن يكون لها مهندس وعمال وغير ذلك

ممن أقاموها.. ولم يجلسوا في بيوتهم مثلا ليجدوا كمية من المال ظهرت أمامهم فجأة.. وكل مصالحهم لابد أن يتحركوا لقضائها.

ومع أن قانون المادة يقول إنه لا يوجد فعل بدون فاعل.. فإنهم لم يطبقوا هذا القانون على الكون كله.. بل ادعوا أن الكون قد خلق بدون فاعل.. بعضهم قال الصدفة حركت المادة فتفاعلت.. ولو أنصفوا لسألوا أنفسهم من الذي أوجد المادة أولا ومن الذي حركها ثانية.. ولكنهم تناسوا هذا السؤال !

وحتى إذا صدمتهم آية من آيات الله تكبروا عليها.. ولعل هذا واضح في العالم الغربي الذي يحاول الفصل بين العلم والدين فصلًا تامًا، وربما كان السبب في ذلك هو المعركة الرهيبة التي قامت بين العلم والكنيسة واستمرت أكثر من قرنين.. وقد كانت الكنيسة تنكر العلم تماما استنادا إلى التوراة وهى الكتاب المقدس لليهود، والذي تؤمن به الكنيسة.. وما جاء في التوراة يقول إن شجرة التفاح التي أكل منها آدم هي شجرة المعرفة.. وإنه حينما أكل آدم التفاحة.. كشفت له علوم كثيرة فغضب الله عليه وطرده من الجنة.. وكانت هذه هي المعصية الأولى التي مازالت البشرية تعاني منها حتى الآن.. والتي نكفر عنها بحياتنا في الأرض المليئة بالشقاء.. ولو لم يأكل آدم تفاحة المعرفة لكنا حتى الآن نعيش في الجنة .

هذه الخرافة المحرفة هي التي أدت إلى المعركة بين الكنيسة والعلم.. تلك المعركة التي تعرض فيها العالم الإيطالي جاليليو جاليلي في القرن الخامس عشر إلى غضب الكنيسة.. عندما أثبت بالأدلة المادية كروية الأرض.. وأصدرت الكنيسة حكما بحرقه حيا لأنه كفر.. واضطر العالم الإيطالي أن ينكر ما اكتشفه .

ولكن موقف الإسلام مختلف.. ذلك أن التفاحة التي أكلها آدم هي منهج الشيطان الذي أظهر عوراته وكشفها.. كما يظهر تزيين الشيطان للناس في الدنيا عوراتهم فيكشفها فيصيبهم الخزي والعار .

الإنسان يكتشف ولا يخلق

الإسلام ينظر إلى العلم على أنه من الله أولا.. فالله يكشف آياته في الأرض للإنسان.. والإنسان يكتشف ولا يخلق أو يضع في الكون قوانين جديدة من صنعه.. ولكن الله يكشف لمن يشاء قوانين كونه ولكل قانون وكشف ميلاد.. فإذا جاء ميلاد كشف لقانون كونى.. كشفه الله لمن يبحث عنه من البشر فيعرفونه ويستخدمونه .

والله –سبحانه وتعالى–الذي قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (الآية ٥ من سورة العلق)

أردنا أن نعرف أن كل علم هو من الله.. والله –سبحانه وتعالى– ميز الإنسان على الملائكة بالعلم فقال جل جلاله :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (الآيات من ٣١: ٣٣ من سورة البقرة)
هذا هو موقف الإسلام من العلم.. وإن كان للكنيسة موقف آخر في معركة استمرت قرنين كاملين بين الكنيسة والعلماء.. وعندما انتصر العلماء عملوا على تضييق نفوذ الكنيسة بحيث أصبحت لا دخل لها بالعلم.. وفصلوا الدين عن الدولة إلى آخر ما يرويه التاريخ

السرُ وراء محاولة فصل الدين عن العلم

العلماء في أبحاثهم يحاولون إنكار دور الدين إيمانا بذاتيتهم فهم يريدون أن يقولوا نحن فعلنا ونحن اكتشفنا.. كما قال قارون: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ (الآية ٧٨ من سورة القصص).

ولذلك فليس في بالهم الله وسيفاجأون بالله -سبحانه وتعالى- في الآخرة مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (الآية ٣٩ من سورة النور).

ولا يحسب أحد أن هؤلاء الذين كفروا.. فعلوا ذلك لأن آيات الله لم تصل اليهم بل الآيات أمامهم ولكنهم هم الذين يتكبرون على الإيمان.. ويقول الحق -سبحانه وتعالى- ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (لآية ٤٦ من سور يس) ولذلك فإن إعراضهم ليس على أن الدليل المادي على وجود الله غائب عنهم ولكن لأنهم يرفضون الإيمان.. إما ليحققوا مصالح ذاتية.. وإما لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.. فيحاولون أن يأخذوا كل ما تعطيهم الدنيا على أن هذا هو كل شيء.. وتكون النتيجة أنهم يستخدمون كل الوسائل.. حلالا أو حراما في الوصول إلى أهدافهم.. عملا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة.

وجعلنا آية النهار مبصرة

ولو أنهم فكروا قليلا لوجدوا الآيات في القرآن الكريم معجزة.. ولو أنهم كانوا علماء وباحثين فعلا.. لقرأوا القرآن الذي سمعوا عنه.. ودرسوا الإسلام دراسة غير مغرضة.. ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. وإنهم مثلا لو التفتوا إلى الآية الكريمة: ﴿ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (من الآية ١٣ من سورة الإسراء) لعرفوا الإعجاز في هذه الآية وحدها.. ولكان الإعجاز فيها كافيًا لأن يؤمنوا.. الله –سبحانه وتعالى– يقول : ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

وهكذا وصف الله النهار بأنه هو المبصر.. ولكن هل النهار هو الذي يبصر.. أم العين هي التي تبصر؟.. الذي نفهمه من تلقائية الإبصار أن العين هي التي تبصر ولكن الحقيقة العلمية تختلف.. فلقد ثبت علميا أن ضوء الشمس ينعكس على الأشياء ثم تدخل أشعة النور إلى العين فتبصر .

إذن فالعين لا تبصر بذاتها ولا بذاتيتها.. ولكنها تبصر بالضوء الذي ينعكس على الأشياء الموجودة أمامها ويدخل إلى العين.. فإذا ذهب هذا الضوء وجاء الظلام فإن العين لا تبصر ولا ترى شيئا في الظلام الدامس.. إلا أن تأتي بمصباح أو مصدر من نور يلقي الضوء على الأشياء فينعكس على العين فتبصر.

هكذا نري دقة تعبير القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾

فالإبصار نسبه الله –سبحانه وتعالى– لضوء النهار ولم ينسبه إلى العين.. ولقد نزلت هذه الآية والبشر كلهم لا يعلمون كيف يتم الإبصار؟.. ماذا كان يحدث لو تقدم العلم وكشف أن العين تبصر بذاتها وليس بانعكاس الضوء على الأشياء.. أكنا في هذه الحالة نستطيع أن نقرأ في الصلاة: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ألم يكن هذا كافيا لهدم قضية الدين من أساسه.

ولو أن هذا القرآن ليس من عند الله.. ولكنه من عند محمد ﷺ .. فما الذي كان يجعله يغامر بذكر قضية علمية كهذه القضية قد يثبت عدم صحتها فيضيع الدين كله.. ومن أين له هذه المعلومات حتى يعرف أن الإبصار يحدث بضوء النهار؟ أليس هذا دليلا ماديا كافيا للإيمان بالله.. وللإيمان بأن القرآن منزل من عند الله الخالق لهذا الكون والعالم بأسراره.

والأرض مددناها

إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة.. ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون.. لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل.. ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كله.. ولكن التصادم يحدث من شيئين.. عدم فهم حقيقة قرآنية أو عدم صحة حقيقة علمية.. فإذا لم نفهم القرآن جيدا وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم.. وإذا كانت الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم.. ولكن كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟.. سنضرب مثلا لذلك.. ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد يؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون.. الله – سبحانه وتعالى– يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ (من الآية ١٩ من سورة الحجر)

والمد معناه البسط... ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة.. ولو فهمنا الآية على هذا المعنى.. لاتهمنا كل من تحدث عن كروية الأرض بالكفر.. خصوصا وأننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض، على هيئة كرة تدور حول نفسها.. نقول إن كل من فهم الآية الكريمة: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾



بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة.. ولكن المعني يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معا.. ويعطى الحقيقة الظاهرة للعين.. والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

عندما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ أي بسطناها... أقال أى أرض؟.. لا.. لم يحدد أرضا بعينها .. بل قال الأرض على إطلاقها.. ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى أي مكان يسمى أرضا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة.. فإذا كنت في خط الاستواء فالأرض أمامك منبسطة.. وإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي.. أو في أمريكا أو أوروبا أو في أفريقيا أو آسيا.. أو في أي بقعة من الأرض.. فإنك تراها أمامك منبسطة.. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية.. فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسى آخر.. فإنك تصل فيها إلى حافة.. لا ترى أمامك الأرض منبسطة ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء.. ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة.. في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية.. حتى إذا بدأت من أي بقعة محددة على سطح الكرة الأرضية ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية.. فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائما منبسطة.. ومادام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة .

وهكذا كانت الآية الكريمة: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾ التي فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض.. وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم.. يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء ويدل على حقيقتها الكونية.

ولذلك فإن الذين أساؤوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهما صحيحا قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية.. وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا ولكنهم لا يؤمنون .

ولا الليل سابق النهار

القرآن الكريم لم يأت بالدلائل التي تؤكد لنا أن الأرض كروية في آية واحدة.. بل جاء بها في آيات متعددة.. لماذا؟.. لأن هذه قضية كونية كبرى.. ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفها البشر.. فأوجدت تصادما بين الدين والعلم.. ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض .

يقول الله –سبحانه وتعالى– في سورة يس﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ (الآية ٤٠ من سورة يس) الله –سبحانه وتعالى– في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجودا عند العرب وقت نزول القرآن.. وهو أن الليل يأتي أولا ثم بعد ذلك يأتي النهار.. أي أن النهار لا يسبق الليل.. ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل.. ولكن الله يقول لكم إن الليل أيضا لا يسبق النهار.. ومعنى أن النهار لا يسبق الليل وأن الليل لا يسبق النهار.. أنهما موجودان معا على سطح الكرة الأرضية.. وحيث أنه لم يحدث تغيير في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق.. بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة.. فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث

أو غير ذلك.. لكان في ساعة الخلق وجد النهار أولا.. ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معا في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية.. إلا إذا كانت الأرض كروية.. فيكون نصف الكرة مضيئا والنصف الآخر مظلما .



الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يتذكر

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى.. فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها فقال جل جلاله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (الآية ٦٢ من سورة الفرقان) ما معنى خلفة؟.. معناها أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر.. فمثلا في الحراسات المستمرة.. تأتي نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها ثم تأتي النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا وإذا فرضنا أن مصنعا يعمل أربعًا وعشرين ساعة متوالية.. فإنه يكون هناك أربع ورديات تخلف كل منها الأخرى.. ولكننا لابد أن نتنبه إلى أنه في كل هذه النظم.. لابد أن تكون هناك وردية هي التي بدأت ولم تخلف أحدا... فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان وإذا بدأنا العمل في المصنع فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحدا لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها.

وهكذا في كل شيء في الدنيا.. يخلف بعضه بعضا.. تكون البداية دائما وليس هناك شيء قبلها تخلفه..ولكن الحق-سبحانه وتعالى-قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً ﴾ (الآية ٦٢ من سورة الفرقان)

وما دام الله هو الذي جعل فلابد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق.. فأوجد الليل والنهار خلفة على الأرض.. ولكننا كما أوضحنا.. فإن ساعة البداية في كل شيء

لا يكون فيها خلفة. . أي لا يخلف شيء شيئا قبله. فهذه هي البدايات.. ولكن الله يقول لنا إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة.. إذن فلا بد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معًا ساعة الخلق على الأرض.. بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر.. فلم يأت النهار أولا ثم خلفه الليل.. لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلفة بل يكون البداية.. ولم يأت الليل أولا ثم يخلفه النهار لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل يكون بداية.. ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معا .

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض.. فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل.. ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار.. بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار.. ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها ووجد الليل والنهار معا ساعة الخلق فلن يكونا خلفة ولن يخلف .أحدهما الآخر.. بل يظل الوضع ثابتا كما حدث ساعة الخلق. .وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار .

ولكن لكي يأتي الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر.. فلابد أن يكون هناك دوران الأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار.. فثبوت الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان.. ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله –سبحانه وتعالى– بها.



إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً ﴾ يحمل معنيين.. المعنى الأول أنهما خلقا معًا.. فلم يسبق أحدهما الآخر.. وهذا إخبار لنا من الله -سبحانه وتعالى- بأن الأرض كروية.

والمعنى الثاني أن الأرض تدور حول نفسها.. وبذلك يتعاقب الليل والنهار .

يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل

وهكذا نرى الإعجاز القرآني.. فالقائل هو الله.. والخالق هو الله.. والمتكلم هو الله.. فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا أن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها.. ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معا.. هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟.

ثم يأتي الحق -سبحانه وتعالى- ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية لأنه -سبحانه وتعالى- يريد أن يرى خلقه آياته فيقول: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (الآية من سورة الزمر)

وهكذا يصف الحق -سبحانه وتعالى- بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير.. وبما أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض معًا فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير.. إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية.. بحيث يكون نصف الكرة مظلما والنصف الآخر مضيئا.. وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئا والنصف الآخر مظلما .

فلو أن الليل والنهار وجدا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة.. بحيث كان أحدهما يبدو شريطا رفيعًا.. في حين يغطي الآخر معظم المساحة ما كان الاثنان



معا على هيئة كرة.. لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع.. أو أي شكل هندسى آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض.. وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار.. ولكن قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلا والنصف الآخر نهارا.. وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها.. وجدنا فعلا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى .

دوران الأرض

إذا أردنا دليلا آخر على دوران الأرض حول نفسها لابد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (من الآية ٨٨ من سورة النمل) عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك.. نتعجب.. لأن الله -سبحانه وتعالى- يقول :﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾، ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينية.. ولكن هناك شيئا خلقه الله -سبحانه وتعالى- وخفي عن أبصارنا.. فما دمنا، نحسب فليست هذه هي الحقيقة.. أي أن مانراه من ثبات الجبال وعدم حركتها.. ليس حقيقة كونية.. وإنما إتقان من الله -سبحانه وتعالى- وطلاقة قدرة منه.. بأنه خلق شيئا جعلنا نراه على غير حقيقته وتلك طلاقة قدرة الخالق.. لأن الجبل ضخم كبير بحيث لايخفى عن أي عين.. فلو أنه كان حجم الجبل دقيقا لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب.. أو أننا لدقة حجمه لم نلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت؟. ولكن الله خلق الجبل ضخما يراه أقل الناس إبصارا.. حتى لايحتج أحد بأن بصره ضعيف لايدرك الأشياء الدقيقة.. وفي نفس الوقت قال لنا إن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم مر السحاب.. ولماذا استخدم الحق -سبحانه وتعالى- حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟.. لأن السحب ليست لها ذاتية الحركة.. فهي لا تتحرك من مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية.. بل لابد

أن تتحرك بقوة تحرك الرياح.. ولو سكنت الريح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة وكذلك الجبال .

الله -سبحانه وتعالى- يريدنا أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية.. أي أنها لا تنتقل بذاتيتها من مكان إلى آخر.. فلا يكون هناك جبل في أوروبا، ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا.. ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها.. وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض.. فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها .

وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها.. ولكنها في نفس الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض، فهي تدور معها تماما كما تحرك الريح السحاب.. ونحن لانحس بدوران الأرض حول نفسها.. ولذلك لا نحس أيضا بحركة الجبال.

وقوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمر فيها.. ذلك لأن السحاب لايبقى دائما.. بل تأتي فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسطع فيها الشمس.. وكذلك حركة الجبال تدور وتعود إلى نفس المكان كل فترة .

لكنه العناد

إذا أردنا أن نمضى فالأرض مليئة بالآيات.. ولكننا نحن الذين لا نتنبه.. وإذا نبهنا أحد فإن الكفار يعرضون عن آيات الله.. تماما كما حدث مع رسول الله.. حين قال له الكفار في قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ (من الايتين ٩٠،٩٢ من سورة الإسراء) وكان كل هذا معاندة منهم.. لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثير الذي يجعلهم يؤمنون .

والحقائق الكونية في القرآن الكريم تتوالى.. والآيات تلو الآيات.. ترينا إعجاز الخلق.. ودقة إخبار الخالق لنا عن أسرار السموات والأرض.. الله –سبحانه وتعالى– يقول : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام: ١١) ولماذا لم يقل سيروا على الأرض.. ثم تأتي الحقيقة العلمية وهي أننا فعلا نسير في الأرض.. وليس على الأرض.. لأن هناك غلافًا جويا يحيط بالأرض وهو جزء منها.. ونحن لا نخرج من الأرض إلا إذا خرجنا من هذا الغلاف الجوي .

فالطائرات التي تطير على ارتفاعات مختلفة تطير في الأرض وليس خارج الأرض.. ولكن الذي يخرج من الأرض هي سفن الفضاء التي تتجاوز الغلاف الجوي

للأرض.. وبدون تجاوز هذا الغلاف لا تستطيع أن ترى صورة الأرض كاملة.. لأنك مادمت قد أصبحت خارج الشيء تتضح أمامك الصورة.. فأنت خارج عمارة مثلا تستطيع أن تعرف شكل العمارة.. ولكنك من داخلها ومن أي مكان فيها.. لاتستطيع أن ترى الصورة كاملة .

وعلى أية حال.. فإنه علميا أنت لاتكون خارج الأرض إلا إذا خرجت من الغلاف الجوي المحيط بها.. لأن الأرض والغلاف الجوى شيء واحد .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يجعلنا نتساءل أين نسير؟.. نحن نسير حقيقة على سطح الأرض ولكننا نسير في الأرض.. أي بين سطح الأرض والغلاف الجوي.. فما تحتنا هو أرض وما فوقنا هو جزء مكمل للأرض، وهو الغلاف الجوي.. وهكذا نرى دقة تعبير القرآن الكريم في وصفه لحركة الإنسان في الأرض .

وإذا كان هذا الوصف يعطينا معجزة.. فإن الأرض نفسها تعطينا معجزة أخرى .

نحن نرى ونمشي في مزارع الأرض وحدائقها.. ونرى أمامنا الأشجار المختلفة والنباتات المختلفة.. ولكن هل يفكر أحد منا في معجزة الخلق في هذه النباتات التي نراها كل يوم.. نحن نعرف أن النباتات تحصل على غذائها بواسطة جذورها الشعرية الدقيقة.. التي تضرب في الأرض.. فتأخذ منها عناصر الغذاء التي تعطيها النمو والثمر.. هذه الأشجار كيف تتغذى .

يقول العلماء إن الغذاء يصعد من جذور النباتات إلى الساق والأوراق والثمار ليغذيها.. بواسطة مايسمى بالضغط الأسموزى. أو نظرية الأنابيب الشعرية.. ويدللون على صحة نظريتهم بأنهم يأتون بإناء واسع ويضعون فيه أنابيب شعرية.. فنرى الماء يصعد فيها.. وهكذا أراد العلم أن يفهمنا أن العملية فيها ميكانيكية الغذاء.. دون أن يكون فيها آيات الخلق وإعجاز الخالق .

نقول: إن هذا التفسير العلمي قد أوضح شيئا وغابت عنه أشياء.. فالماء يصعد فعلا في هذه الأنابيب الشعرية.. ولكنه يصعد بكل محتوياته.. فالأنابيب الشعرية لاتميز بين عناصر الماء.. فتأخذ عنصرا وتترك عنصرا ولكن في النبات.. الأمر يختلف تماما.. فالغذاء في الأرض بعناصره كلها واحد متجانس.. ولكننا نرى كل شجرة تأخذ من هذا الغذاء ما يناسب ثمارها.. أي أنها تختار العناصر اللازمة لها.. وتترك الباقي ولا تأخذه. ولذلك نرى الزرع ينبت في مكان واحد ويسقى بماء واحد.. ولكن كل ثمرة لها طعم وشكل ولون ورائحة وحجم يختلف عن الأخرى.. فهذه حلوة.. وهذه مرة.. وهذه صغيرة وهذه كبيرة.. وهذه لونها أحمر وتلك لونها أصفر.. والثالثة لونها أبيض.. وهذه لها رائحة نفاذة وتلك ليس لها رائحة.. أشكال وألوان مختلفة.. وكل شجرة من هذه الأشجار تأخذ من الأرض ما يناسبها من عناصر للتكوين الدقيق لها بكل تفاصيله وتترك الباقى.. ونرى شجرة التفاح ثمرها حلو ورائحتها نفاذة.. وبجانبها الليمون طعمه حامض وبجانبها الحنظل طعمه مر..

وثمرة نأكلها ونترك ما بداخلها مثل المشمش والخوخ والبلح.. وثمرة ننزع غلافها ولا نأكله ولكننا نرميه كالبرتقال والبطيخ... وثمرة لها غلاف هش كالبرقوق مثلا.. وثمرة غلافها جامد قوي لاتستطيع أن تنزعه بيدك كالجوز واللوز والبندق وجوز الهند.. وثمرة صالحة للتخزين أياما أو أسابيع كأنواع من البطيخ.. وثمرة صالحة للتخزين شهورًا طويلة كالجوز واللوز.

وأستطيع أن أمضي بلا نهاية في وصف أنواع الثمر المختلفة التي تنبتها الأشجار.. ولكنني أفضل أن أذكر الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

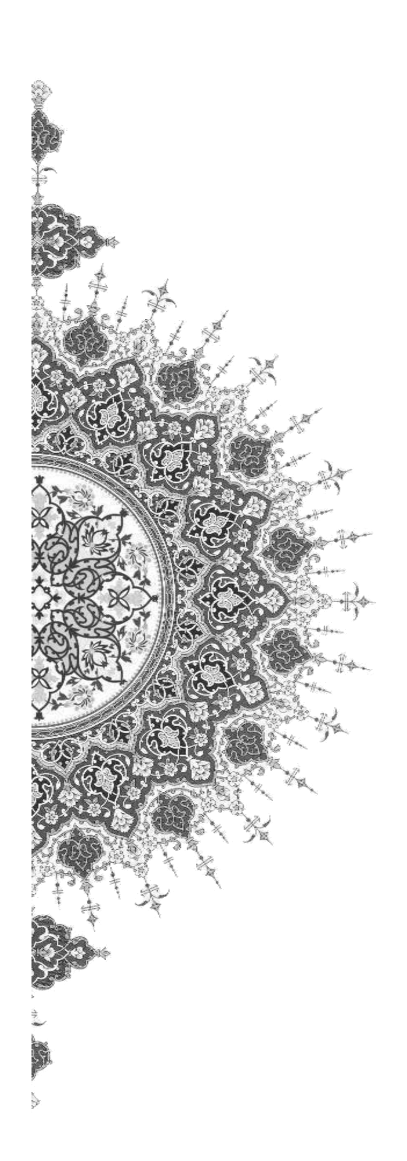
﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الآية ٤ من سورة الرعد)

ونحن نمر على الجنات الموجودة في كل أنحاء الأرض ونرى هذه الآيات.. ثم بعد ذلك نتساءل أين الدليل المادي على أن الله هو الخالق.. سبحانك ياربي القائل﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (الآية٤ من سورة الأنعام)

وصدق الله العظيم في قوله تعالى:﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ (الآية١٧ من سورة عبس)

الفصل الخامس

الأدلة المادية من القرآن



- القرآن هو المهيمن.
- لا يوجد تصادم بين القرآن والعلم الصحيح.
- كيف يخلق الجنين في بطن أمه؟.
- أطوار الجنين في القرآن .
- إسلام عالم .
- العالم الآن يتعلم ما عَلِمَه محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرنًا .
- إنه وحي من السماء .
- سر الحياة .
- الإعجاز في خلق السموات والأرض دليل على وجود الله .

القرآن هو المهيمن

الكون مليء بآيات العلم التي تدل على وجود الله – وليس معنى ذلك أننا نستدل على صحة القرآن بالعلم – بل إن القرآن هو المهيمن والمسيطر وهو الحق.. وما العلم إلا كاشف لقدرة الله في الكون.. فما جاء به القرآن نحن نؤمن به إيمانا غيبيا لا يرقى إليه أي شك ولا نريد عليه دليلا – لأن دليلنا ويقيننا أن الله هو الذي قال.. ولكننا نكتب هذا الكتاب لنرد على غير المؤمنين. .

ولذلك فنحن نرد بالحجة والدليل المادي مالا يستطيعون أن يردوا عليه.. ونحن لا نقدر أن نحيط بكل آيات الله في الكون.. ذلك أن آيات الله أكبر من أن يحيط بها بشر مهما كانت قدرته وعلمه.. ولكننا مع القرآن الكريم فنثبت بالدليل المادي ..

وفي جولة تشمل الكون المحيط بنا وحسب قدراتنا البشرية.. سنثبت أن لله آيات و معجزات ذكرت في القرآن الكريم.. واعترف غير المؤمنين أنه لا يمكن أن يكون منزل هذه الآيات إلا الله –سبحانه وتعالى–.. ولذلك فإننا سنجوب الكون لنعطي مثلا واحدا من عدة أماكن.. ففي خلق الإنسان آيات.. وفي الجبال آيات.. وإذا صعدنا إلى السماء وجدنا آيات.. وإذا نزلنا إلى باطن الأرض كانت هناك آيات.. وإذا غصنا في أعماق البحار كانت هناك آيات.. كل هذا موجود.. نحن سنعطي لمحات.. لأننا إذا أردنا أن نحيط بكل شيء فنحن نحتاج إلى مجلدات كثيرة .

لا يوجد تصادم بين القرآن والعلم الصحيح

وكما قلت فإن أي تصادم بين القرآن والعلم.. لا يمكن إلا أن تكون النظرية العلمية خاطئة.. أو يكون فهمنا للقرآن غير سليم.. وقد تحدثنا عن ذلك في الفصل السابق.

الله -سبحانه وتعالى- قال في كتابه الكريم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (الآية ٥٣ من سورة فصلت) ومعنى سنريهم.. أي سيرون رؤية عين.. ورؤية يقين.. ومعنى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ أن الذين سيرون غير مؤمنين.. وإلا لو كانوا مؤمنين لعرفوا أنه الحق.. ولما احتاجوا إلى هذا الدليل المادي.. ولذلك فإن عددا من غير المؤمنين سيكشف الله لهم عن آياته في الكون.. فلا يستطيعون أن ينكروا أنها من عند الله.. ولا يستطيعون أن يتكبروا ويقولوا إن هذا من عند أي بشر.. ولا يستطيعون أن يدعوا أنها المصادفة.. ولا يمكنهم إلا أن يعترفوا ولكنهم لا يؤمنون .

ولقد اخترنا في هذا الفصل أقوال عدد من العلماء الغربيين.. كلهم قبل أن يبدأوا الحديث قالوا إننا علماء لا نصدق إلا ما نرى.. ولا نتعامل إلا مع الأشياء المادية البحتة.. ولقد تجنبت الحديث عما قاله علماء مسلمون ولهم كشوفهم العلمية.. وبعضهم يعيش في الغرب وله مكانته العلمية.. ذلك أن الإنسان المؤمن مندفع بحماس الإيمان إلى أن يصل إلى نتائج.. لأنه يجب أن يظهر إعجاز القرآن وفيه حماس

لأن يجعل غيره يؤمن.. ولذلك استبعدت كل ما قالوه.. وأخذت من أقوال الذين بدأوا جدلهم بأنه لا علاقة بين العلم والدين.. بل ادعوا أنهما نقيضان لا يلتقيان. .

فالعلم يتحدث عن أشياء واقعية ترى وتشاهد.. والدين يتحدث عن أشياء غيبية يؤمن بها الناس.. وكان هذا في رأيهم هو نقطة عدم الالتقاء.. ولكننا نقول لهم إنه لا إلزام عليكم فأنتم غير مؤمنين.. فتستطيعون أن تقولوا أن ما جاء في القرآن يختلف مع العلم.. ذلك أنه لا حرج عليكم فيما تقولون.. وأنتم لن تخالفوا ضمائركم.. ونحن على يقين من أن الله –سبحانه وتعالى– هو خالق الكون.. وأن القرآن الكريم هو كلام الله.. وإذا تكلم الخالق عن كونه فهو أعلم منا جميعا .




كيف يخلق الجنين في بطن أمه؟

إذا أردنا أن نبدأ بمعجزة الجنين وما ذكر عنها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا.. وما كشفه العلم يقينا وصوره وعرض علينا صوره.. إن علم الأجنة لم يعرفه العالم بشكل واضح إلا في القرن العشرين.. ففى القرن السابع عشر كان العلم يقول الإنسان يخلق خلقا كاملا في الحيوان المنوى للرجل على صورته الإنسانية.. أي أنك إذا أخذت الحيوان المنوى واستطعت أن تكبره وجدت فيه الإنسان بكل تفاصيله مخلقا خلقا كاملا.. أي أن الإنسان لا يخلق على أطوار في بطن أمه بل يخلق مرة واحدة.. وفي القرن الثامن عشر تغيرت الصورة عندما اكتشفوا بويضة المرأة.. وركز العلم على دور المرأة في الحمل وأهملوا دور الرجل.. وقالوا إن بويضة المرأة هي التي فيها الإنسان الكامل لأنها الأكبر.. وأن نطفة الرجل هي مجرد عملية تلقيح فقط لا غير.

وظل هذا الرأي سائدا حتى القرن العشرين.. وجاء العلم الحديث ليغير الصورة تماما.. ويعطينا صورة جديدة للجنين في بطن أمه.. ويأتي بصور تثبت ذلك.. حتى إن العملية أصبحت أمرًا يقينيًا لأنه يمكن تصوير الجنين وهو يتطور وينمو في بطن أمه .

وكان للقرآن الكريم في هذا كلمة.. ذلك أن القرآن جاء بوصف دقيق لأطوار الجنين منذ أربعة عشر قرنا.. يوم أن كانت الدنيا كلها بكل من فيها وما فيها لا تعرف شيئا عما في بطن الأم.. وذكر القرآن لهذه الآيات لا يمكن أن يأتي إلا إذا كان هذا القرآن منزلا من عند الله .

ومحمد ﷺ النبي الأمي لم يكن يملك من العلم البشرى شيئا.. وحتى لو كان يملك فلم يكن عالم البشر يعرف شيئا.. وكما قلت فإن المخاطرة بذكر شيء علمي في القرآن لا يمكن أن يقدم عليها بشر.. لماذا؟.. لأن القرآن هو كلام الله الذي لا يتغير ولا يتبدل والمتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة.. فكيف يكون موقف الدين.. وموقف المسلمين إذا ذكر في القرآن شيء يمس العلم البشرى.. ثم جاءت الأبحاث وتقدمت العلوم واكتشفت أن هذا غير صحيح.. كانت ستضيع قضية الدين كله.. وما الذي يجعل محمدا ﷺ يخوض في هذه الأشياء لأن البشرية كلها كانت تجهلها.. فيتطوع هو ويعطى أعداء الدين ما يهدمونه به.





أطوار الجنين في القرآن

ماذا قال القرآن الكريم عن أطوار الجنين؟.. قال الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (الآيات من١٢-١٤ من سورة المؤمنون) فإذا بدأنا بهذه الآية تفصيلا.. فهي تذكر أولا أن خلق الإنسان من طين.. ومعنى ذلك أنها حددت المادة التي خلق منها الإنسان وهى الطين.. والطين موجود في كل مكان في الأرض.. والعلماء أخذوا الطين وحللوه.. فوجدوه يتكون من ثمانية عشر عنصرا.. منها الحديد والبوتاسيوم والمغنسيوم وغير ذلك من المواد.. ثم درسوا جسم الإنسان فوجدوه يتكون من نفس هذه المواد.. وهي الثمانية عشر عنصرا التي يتكون منها الطين..

وهكذا جاءت الحقيقة الأولى.. حقيقة مشاهدة معملية لا تخضع للجدل.. ثم بدأ القرآن في وصف خلق الإنسان في بطن أمه.. فتقول الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ والقرار المكين هو رحم الأم.. ثم تأتي مسألة العلقة.. ونترك الحديث للبروفيسور الكندى كيث ل. مور.. وهو من أشهر علماء العالم في علم الأجنة.. ورئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة تورنتو بكندا..

ورئيس الاتحاد الكندي الأمريكي لعلماء الأجنة.. وله عدة كتب مترجمة إلى ثمانى لغات.. وهو الحائز على الجائزة الأولى في العالم عن كتابه عن علم الأجنة.. هذه الجائزة التي تعطي لأحسن كتاب ألفه مؤلف واحد .

***

قال الدكتور كيث. ل. مور: إن الجنين عندما يبدأ في النمو في بطن أمه يكون شكله يشبه العلقة أو الدودة.. وعرض صورة بالأشعة لبداية خلق الجنين ومعها صورة للعلقة.. فظهر التشابه واضحا بين الاثنين.. ولما قيل له: إن العلقة عند العرب معناها الدم المتجمد.. ذهل.. وقال إن ما ذكر في القرآن ليس وصفا دقيقا فقط لشكل الجنين الخارجي.. ولكنه وصف دقيق لتكوينه.. ذلك أنه في مرحلة العلقة تكون الدماء محبوسة في العروق الدقيقة في شكل الدم المتجمد .

فإذا جئنا إلى المرحلة الثانية في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ فإن القرآن الكريم جاء بالوصف الدقيق.. فعندما عرضت صورة الأشعة المأخوذة للجنين وهو في مرحلة المضغة.. وصورت قطعة من الصلصال أو اللبان الممضوغ.. وجد الشكل واحدا.. ثم أظهرت صورة الأشعة التي التقطت للجنين في مرحلة المضغة وجدت فيها تجويفات تشبه علامات الأسنان.. بل إن الله –سبحانه وتعالى– قد تجاوز مرحلة



الشكل الخارجي إلى التكوين الداخلي. .فقال جل جلاله: ﴿ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ (من الآية ٥ من سورة الحج)

وعندما جيء بالمضغة الآدمية من بطن الأم وطولها سنتيمتر واحد.. وتم تشريحها تحت الميكرسكوب الإلكتروني.. وجد أن بعض أجهزة الجنين بدأت تتخلق وبعضها لم يتخلق.. ولو أن القرآن الكريم قال مضغة مخلقة.. لكان ذلك لا ينطبق على حقيقة التكوين.. لأن فيها أجزاء غير مخلقة ..

ولو قال القرآن الكريم مضغة غير مخلقة.. لكان ذلك لايطابق حقيقة التكوين لأن فيها أجزاء مخلقة.. ولكن الوصف الدقيق الوحيد الذي ينطبق على المضغة هو قوله تعالى :﴿ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾.

ولقد عرض العالم الكندي كل أطوار الجنين في بطن أمه.. والتي التقطت بأحدث الأجهزة العلمية، فإذا هي تنطبق تماما على كل ما ذكر في القرآن الكريم.. من مراحل تكوين العظام واللحم إلى غير ذلك. .

ولما قيل للدكتور كيث. ل. مور هل كان من الممكن أن يعرف رسول الله هذه التفصيلات عن أطوار الجنين؟.. قال: مستحيل.. إن العالم كله في ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجنين يخلق أطوارا.. فما بالكم بتحديد مراحل هذه الأطوار التي لم يستطع العلم حتى الآن أن يحددها بهذه السهولة والدقة.. بل إن العلم لم يستطع حتى

الآن تسمية أطوار الجنين، بل أعطاها أرقاما بشكل معقد غير مفهوم.. في حين جاءت في القرآن بأسماء محددة وبسيطة وغاية في الدقة .

يتضح لى أن هذه الأدلة حتما جاءت لمحمد من عند الله.. وهذا يثبت لى أن محمدا رسول الله.. فقيل له: بعد أن قلت ما قلت.. أفلا تسلم؟.. فقال: إنه مستعد أن يضع في الطبعات القادمة من كتبه إشارة إلى ما علمت.

ولقد قرئ معنى الآيات التي جاءت في القرآن الكريم على أكبر علماء الأجنة في العالم.. فلم يجرؤ واحد منهم أن يدعي أن هناك تصادما بين ما جاء في القرآن الكريم وأحدث ما وصل إليه العلم.

ولكن أحدهم أثار أن الوراثة أو البرنامج الوراثي للإنسان يوجد في نطفة الرجل.. ويتحدد فيها تفاصيل الإنسان الذي سيولد ذكرًا أم أنثي؟ ما هو لون العينين ولون الجلد ولون الشعر إلى آخره.. أي أن الإنسان تكون صفات خلقه موجودة في شفرة خاصة في نطفة الرجل.. فلما قرئت عليه الآية الكريمة: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ❁ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ❁ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (الآيات ١٧، ١٨، ١٩ عبس)

قال: لا يمكن أن يكون هذا إلا من عند الله.



هذه الأبحاث كلها التي ذكرتها، وشهادات العلماء مدونة ومسجلة بالصوت والصورة في المؤتمرات المتعاقبة عن الإعجاز في القرآن الكريم.. وهي مؤتمرات عقدت في الدول الإسلامية المختلفة.. ويستطيع كل من يريد أن يرجع إلى هذه الأشرطة ويشاهد هؤلاء العلماء وهم يتحدثون ويتكلمون.. بل إن عالما منهم أشهر إسلامه، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أمام الحاضرين في أحد هذه المؤتمرات.. وهو البروفيسور التايلاندي تاجاثات جاسن.. وهو من أكبر علماء العالم في علم التشريح.. وذلك عندما كان يتحدث عن الأعصاب.. وكيف أنها موجودة تحت الجلد مباشرة.. بحيث إذا احترق الجلد انتهى الإحساس بالألم تماما.. والله – سبحانه وتعالى– يقول عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾(من الآية ٥٦ من سورة النساء)

***

ذلك أن الحق –سبحانه وتعالى– يريد أن يلفتنا إلى أن عذاب النار.. عذاب دائم ومستمر لا يخفف ولا يتوقف.. ولما كان في علمه –سبحانه وتعالى– وهو الخالق.. أن الجلود إذا احترقت انتهى إحساس الإنسان بالألم.. نبهنا أن جلود أهل النار كلما احترقت بدلهم الله جلودا غيرها ليستمر شعورهم بالعذاب. .

إسلام عالم

وعندما عرض معنى هذه الآيات على البروفيسور تاجاثات جاسن.. قال: أهذا الكلام قيل منذ أربعة عشر قرنا؟.. قالوا نعم.. قال: إن هذه الحقيقة لم يعرفها العلم إلا حديثا.. ولا يمكن أن يكون قائلها بشرا.. بل هي من الله –سبحانه وتعالى–.. حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

ولنا أن نتأمل في هذه الآية الكريمة : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الله –سبحانه وتعالى– لم يلفتنا إلى أنه كلما احترقت جلود أهل النار بدلهم غيرها.. أكان من الممكن أن نعرف كيف سيستمر عذاب أهل النار.. بلا توقف ولا يخفف عنهم .

لو أن الحقيقة العلمية بأن الأعصاب موجودة تحت الجلد.. وإذا احترق الجلد لا يحس الإنسان بالألم.. ذكرت دون أن يبين لنا القرآن الكريم كيفية استمرار العذاب.. كان الكفار العاصون سيقولون سنعذب فترة قصيرة حتى تحترق جلودنا.. ثم بعد ذلك لا نحس بأي عذاب أو ألم.. ولكان هذا تشجيعا للإنسان على الاستهانة بعذاب الله في الآخرة.. لأنه لن يستمر العذاب إلا لفترة قصيرة يحترق فيها الجلد وينتهى العذاب.. ولوُجِدَ هناك تصادمًا بين القرآن الكريم والحقائق العلمية.. في أن الكفار سيخلدون في عذاب جهنم.. وذلك في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ (الآيتان ٧٤، ٧٥ من سورة الزخرف) ولا يفتر معناه لا يخفف.. فكيف يقول الله -سبحانه وتعالى- إن أهل جهنم سيخلدون في العذاب.. وإنه لم يخفف عنهم.. مع أنهم إذا احترقت جلودهم فقدوا الإحساس بالعذاب والألم.. ومن الذي أبلغ رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة العلمية حول الإحساس بالألم.. وهذا ما لم يعرفه البشر إلا حديثا.. ألم يكف هذا كدليل مادي على أن القرآن الكريم من عند الله؟.. ألا يكفي هذا أيضا كدليل مادي.. على أن الذي خلق هو الذي قال؟.. وإذا كان هذا قد دفع عالما من أكبر علماء علم التشريح وهو العارف بأسرار هذا العلم.. أن يعلن إسلامه أمام الناس في مؤتمر عام.. وقد بهره الإعجاز الإلهي ووجد بين يديه الدليل المادي على وجود الله فنطق بالشهادتين.. ألا يكفي هذا ليؤمن العالم كله ويؤمن أهل الأرض جميعا؟ العالم الآن يتعلم ما علمه محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرنا ونحن نكتفي بهذا الجزء بالنسبة للإنسان.. ذلك أننا نريد أن نتحدث عن آيات أخرى في الكون بالنسبة لغير الإنسان.. بالنسبة للكون نفسه.. والأصل الواحد للكون

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الآية: ٣٠ من سورة الأنبياء).

لقد عرض معنى هذه الآية في مؤتمر الإعجاز القرآني في السعودية على الدكتور ألفريد كرونر من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا.. وعندما قرأ المعنى أخذ يصيح: مستحيل.. مستحيل أن تكون هذه الحقائق قد ذكرت في أي كتاب منذ أربعة عشر قرنا.. إننا لم نصل إلى هذه الحقيقة العلمية إلا منذ سنوات.. وباستخدام وسائل علمية متقدمة جدا وبعد دراسات معقدة طويلة خاصة بعلم الطبيعة النووية.. والأصل الواحد للكون لا يمكن أن يكون قد توصل إليه بشر منذ ألف وأربعمائة سنة.. ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد ﷺ منذ ألف وأربعمائة سنة .

ولعلنا جميعا مازلنا نذكر تجربة صعود الإنسان إلى القمر.. وكيف كان العلماء يحلمون قبل إتمام هذه التجربة.. بالعناصر النادرة التي سيجدونها على سطح القمر.. وبالمواد التي سيحضرونها.. وكيف أنه سيكون فيها مواد تشفى أمراضا لا يوجد لها دواء على الأرض.. ومواد إذا أضيفت لعناصر الأرض نتجت عنها عناصر جديدة لم تعرفها البشرية.. وأخذت أحلامهم تزداد عما سيضيفونه إلى الكرة الأرضية من عناصر غير موجودة.. واشتد الخيال وامتلأت الرءوس بالأحلام..

إنه وحي من السماء

ثم ماذا حدث؟.. صعد الإنسان إلى القمر ومشى فوق سطحه.. وجاء بعينات من الصخور التي على السطح.. ومن الصخور الموجودة تحت السطح وعادوا بها إلى الأرض.. وإذا بهم يكتشفون أن سطح القمر مكون من نفس عناصر سطح الأرض.. وأن صخور القمر في تركيباتها هي نفس صخور الأرض وأنهما من أصل واحد ألم يكن هذا كافيا كدليل مادي قوي على أن يؤمنوا؟.. ألم يكن إثبات نظرية الأصل الواحد للسموات والأرض.. الذي أخبرنا الله به -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم.. منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة دليلا كافيا على وجود الله.. وعلى أنه الخالق؟.. إن العالم الذي قال إن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع أن تثبت ما قاله محمد منذ ألف وأربعمائة سنة، وهو البروفيسور ألفريد كرونر.. عالم مراوغ جدا.. حتى أنه كان يحاول أن يتهرب من الإجابة.. حتى لا يشهد بأن هذا العلم قد أنزل من الله -سبحانه وتعالى-.. حتى أنه في كل ما قاله كان يقول إن ما قاله محمد، فقالوا له: سنثبت لك أن محمدا لم يكن ينطق إلا بوحي من الله.. وأنه في عدد من الأحاديث النبوية إعجاز نرجو أن تفسره لنا ..

قال رسول الله ﷺ في حديث رواه أبو هريرة وجاء في البخاري ومسلم.. روى حديثا يقول في جزء منه: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا)[١].. أي مزارع وبساتين وأنهارا.. ولما سئل الدكتور كرونر هل كانت أرض العرب بساتين وأنهارا كما روى رسول الله ﷺ قال نعم.. فقيل له متى كان ذلك؟.. قال: في العصر الجليدي الأول الذي مر به العالم في عصوره الأولى.

وسئل كرونر من الذي أخبر رسول الله ﷺ بهذه الحقيقة.. قال ربما علم ذلك من الرومان الذين كانوا متقدمين في هذه العلوم.. فسألوه: هل تعود بلاد العرب بساتين وأنهارا مرة أخرى؟.. قال: نعم هذه حقيقة علمية.. قالوا: كيف تقول على شيء سيقع في المستقبل إنه حقيقة علمية.. قال: لأن العصر الجليدي الثاني بدأ.. ومن مقدماته ذلك الشتاء القارس والعواصف الثلجية التي بدأت تزحف على أوروبا في السنوات الأخيرة.. وكل شتاء سيأتي سيكون أقسى من الذي قبله.. فكتلة الجليد في القطب الشمالي بدأت تزحف ببطء نحو الجنوب.. وهي في كل عام تقترب.. ولكن ببطء جدا من المنطقة التي فيها بلاد العرب.. وعندما يزداد هذا الاقتراب بعد فترة طويلة من منطقة بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارا والعجيب أنه في الشتاء الماضي

---

[١] أخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب: الزكاة، باب: الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧)(٦٠) من حديث أبي هريرة- رضى الله عنه-.

غمرت الثلوج أرض السعودية لأول مرة منذ قرون طويلة.. ووصلت درجة الحرارة هناك إلى عدة درجات تحت الصفر وعندما سئل الدكتور كرونر: هل الرومان هم الذين أخبروا رسول الله ﷺ.. بأن بلاد العرب ستعود بساتين وأنهارا؟.. قال: لا يمكن أن يحدث ذلك إلا بوحي من السماء.

سر الحياة

نعود إلى الآية الكريمة ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾.في هذه الآية أعطانا الله سرا من أسرار الحياة وهو الماء ولقد أصبح هذا حقيقة علمية يعترف بها العالم أجمع.. فالصور الحديثة التي تلتقط بالأقمار الصناعية وسفن الفضاء والكواكب القريبة من الأرض.. يستطيع العلماء أن يتنبأوا إذا كان في هذه الكواكب حياة أم لا.. ورغم أن هذه الصور لا تأتي بالتفاصيل الدقيقة التي تبين إذا كانت هناك مخلوقات موجودة على سطح هذا الكوكب أم لا.. ولكن مجرد علمهم بأن الصور لا تدل على وجود الماء على سطح الكوكب فإنهم يؤكدون أنه لا حياة فيه.. فإذا كان هناك ما يشير إلى أن الماء موجود تحدثوا عن احتمالات الحياة.. وعملية وجود الماء هي من قدرة الله -سبحانه وتعالى- التي احتفظ بها لنفسه.. وهي عندنا في الأرض تتم دون عمل من الإنسان.. بل هي عطاء من الله.. بخار الماء يصعد من المحيطات والبحار.. ويتكثف في طبقات الجو العليا وينزل مطرا.. ولذلك يقول الله -سبحانه وتعالى- في سورة الواقعة :﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ (الآيات من ٦٨- ٧٠ من سورة الواقعة)

إذن الماء هو رزق من السماء بقدرة الله.. وكل من يدعي غير ذلك نطالبه أن ينشىء لنا نهرا صغيرا وسط الصحراء.. ويملأه بالماء إن كان يستطيع.. ولن يستطيع..

ولكن اعتراف العلم ويقينه من أن وجود الماء معناه وجود الحياة... لم يلفتهم إلى ما ذكره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا.. وكان يجب أن يلتفتوا إلى هذا الإعجاز.. فيؤمنوا بالله خالقا وموجدا وإلها واحدا.. ولذلك يقول الحق جل جلاله : ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾..قد قدم لهم الدليل المادي في الأصل الواحد للسموات والأرض.. ومن أن الماء هو سر الحياة.. فإنهم لم يؤمنوا وحينئذ يكون عدم إيمانهم مكابرة وعنادا.. ويكون عذابهم في جهنم عدة من الله، الذي أعطاهم الدليل تلو الدليل.. ومع ذلك لا يؤمنون .

الإعجاز في خلق السموات والأرض دليل على وجود الله:

وقبل أن نترك السماء وآياتها.. لابد أن نتحدث عن الإعجاز في خلق السموات والأرض.. نحن ننظر إلى السماء ونرى أشياء وتغيب عنا أشياء.. مثلا عندما عرض معنى الآية الكريمة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (الآية ١١ من سورة فصلت) قرأ البروفيسور يوشيدى كوزاى مدير مرصد طوكيو هذا الكلام وأراد أن ينهي المناقشة.. وقال: العلم لم يصل إلا منذ فترة بسيطة جدا إلى أن السماء كانت دخانا.. وقد أصبح هذا شيئا مشهودا ومرئيا الآن.. بعد إطلاق سفن الفضاء والأقمار الصناعية وعرض صور التقطت لنجم في السماء وهو يتكون.. وقد بدا كتلة من الدخان في وسطها تكون الجزء المضيء من النجم وحوله الدخان وتحيط بالدخان حافة حمراء دليل على ارتفاع درجة الحرارة

وقال لقد كنا نعتقد منذ سنوات فقط أن السماء كانت ضبابا... ولكننا عرفنا الآن بعد التقدم العلمي بأنها ليست ضبابا ولكنها دخان.. لأن الضباب خامد وبارد.. والدخان حار وفيه حركة.. وهذا يدل على أن السماء كانت دخانا.. وقال إنني متأثر جدا باكتشاف هذه الحقيقة في القرآن وإذا كنا نريد أن نمضي في التفاصيل.. ليقتنع من لم يقتنع.. فإننا نستعرض بسرعة.. بعض ما قاله أشهر علماء العالم في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.. الدكتور استروخ من أشهر علماء وكالة ناسا الأمريكية للفضاء.. قال: لقد أجرينا أبحاثا كثيرة على معادن الأرض وأبحاثا معملية.. ولكن المعدن الوحيد الذي يحير العلماء هو الحديد.. فذرَّات الحديد لها تكوين مميز.. إن الإلكترونات والنيترونات في ذرة الحديد لكى تتحد.. محتاجة إلى طاقة هائلة تبلغ أربع مرات مجموع الطاقة الموجودة في مجموعتنا الشمسية ولذلك فلا يمكن أن يكون الحديد قد تكون على الأرض.. ولابد أنه عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها.. فلما ترجموا له معنى الآية الكريمة ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ (من الآية ٢٥ من سورة الحديد) قال: إن هذا الكلام لا يمكن أن يكون من كلام بشر.

فإذا تركنا السماء وأسرارها ونزلنا إلى أعماق البحار وجدنا شيئا عجيبا.. إن الصور الحديثة التي التقطت للبحار قد أثبتت أن بحار الدنيا ليست موحدة التكوين.. بل هي تختلف في الحرارة والملوحة والكثافة ونسبة الأكسجين.. وفي صورة التقطت

بالأقمار الصناعية.. ظهر كل بحر بلون مختلف عن البحر الآخر.. فبعضها أزرق قاتم وبعضها أسود وبعضها أصفر.. وذلك بسبب اختلاف درجات الحرارة في كل بحر عن الآخر.. وقد التقطت هذه الصور بالخاصية الحرارية.. وبالأقمار الصناعية ومن عمق الفضاء.. وظهر خط أبيض رفيع يفصل بين كل بحر وآخر.. فإن قرأت الآية الكريمة ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ (الآيتان:١٩ و٢٠ من سورة الرحمن) نجد أن وسائل العلم الحديثة قد وصلت إلى تصوير البرزخ بين البحرين.. وبينت معنى (لَا يَبْغِيَانِ).. بأن مياه أي بحر حين تدخل إلى البحر الآخر عن طريق البرزخ.. فإنها تأخذ وقت دخولها خصائص البحر الذي تدخل له.. فلا تبغى مياه بحر على مياه بحر آخر فتغيرها ولقد تم الوصول إلى هذه الحقائق بعد إقامة مئات من المحطات البحرية.. والتقاط الصور بالأقمار الصناعية.. والذي قال هذا الكلام هو البروفيسور شرايدر من أكبر علماء البحار بألمانيا الغربية.. الذي كان يقول في أول كلامه: إذا تقدم العلم فلابد أن يتراجع الدين.. فعندما سمع معانى آيات القرآن بهت وقال: إن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر.

ويأتي البروفيسور (دورجاروا) أستاذ علم جيولوجيا البحار ليعطينا ما وصل إليه العلم في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (الآية ٤٠ من سورة النور) فيقول لقد كان الإنسان في الماضي لا

يستطيع أن يغوص بدون استخدام الآلات أكثر من عشرين مترا.. ولكننا نغوص الآن في أعماق البحار بواسطة المعدات الحديثة.. فنجد ظلاما شديدا على عمق مائتي متر الآية الكريمة تقول: ﴿ بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾.. وأعطتنا اكتشافات أعماق البحار صورة لمعنى قوله تعالى: ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ فالمعروف أن ألوان الطيف سبعة.. منها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر والبرتقالي إلى آخره.. فإذا غصنا في أعماق البحر تختفي هذه الألوان واحدا بعد الآخر.. واختفاء كل لون يعطى ظلمة فالأحمر يختفي أولا ثم البرتقالي ثم الأصفر.. وآخر الألوان اختفاء هو اللون الأزرق على عمق مائتي متر.. كل لون يختفي يعطي جزءا من الظلمة حتى تصل إلى الظلمة الكاملة.. أما قوله تعالى : ﴿ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ﴾

.. فقد ثبت علميا أن هناك فاصلا بين الجزء العميق من البحر والجزء العلوي.. وأن هذا الفاصل مليء بالأمواج.. فكأن هناك أمواجا على حافة الجزء العميق المظلم من البحر وهذه لا نراها.. وهناك أمواج على سطح البحر وهذه نراها.. فكأنها موج من فوق موج.. وهذه حقيقة علمية مؤكدة.

ولذلك قال البروفيسور دورجاروا عن هذه الآيات القرآنية هذا لا يمكن أن يكون علما بشريا وإذا كانت العلوم الحديثة أكدت أن للجبال جذورا عميقة في الأرض.. وهو ما لم يكن معروفا.. ففي كل الخرائط الجغرافية تظهر الجبال بلا جذور ممتدة داخل الأرض.. ولكن الصور الأخيرة التي التقطت للجبال.. ظهر فيها أن لكل

جبل وتدا يقويه يسميه العلماء جذرا.. وأن هذا الجذر يمتد إلى أعماق بعيدة.. وهكذا ظهر إعجاز الآية الكريمة﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (الآية ٦، ٧ من سورة النبأ) ثم جاءت حقيقة أخرى في قوله تعالى:﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الآية ١، ٢ ومن الآية الثالثة من سورة الروم) وقد فسرت أدني على أساس أنها قريبة من أرض العرب.. فقد حدثت المعركة قرب بيت المقدس.. وجاءت الخرائط الجيولوجية التي صورت أخيرا بالأقمار الصناعية.. لتثبت أن المنطقة التي دارت فيها المعركة هي أكثر الأماكن انخفاضا على سطح الأرض.. وأدني تعني المكان المنخفض.

إلى هنا وقد أوردنا عددا من الأبحاث التي تمت في مؤتمرات الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.. والتي شارك فيها عدد من أكبر علماء العالم في مختلف فروع العلم من غير المؤمنين.. والذين شهدوا جميعا أن الآيات القرآنية التي قرئ عليهم معانيها.. لا يمكن أن تكون إلا من وحي إلهي.. ومن خالق لهذا الكون ..

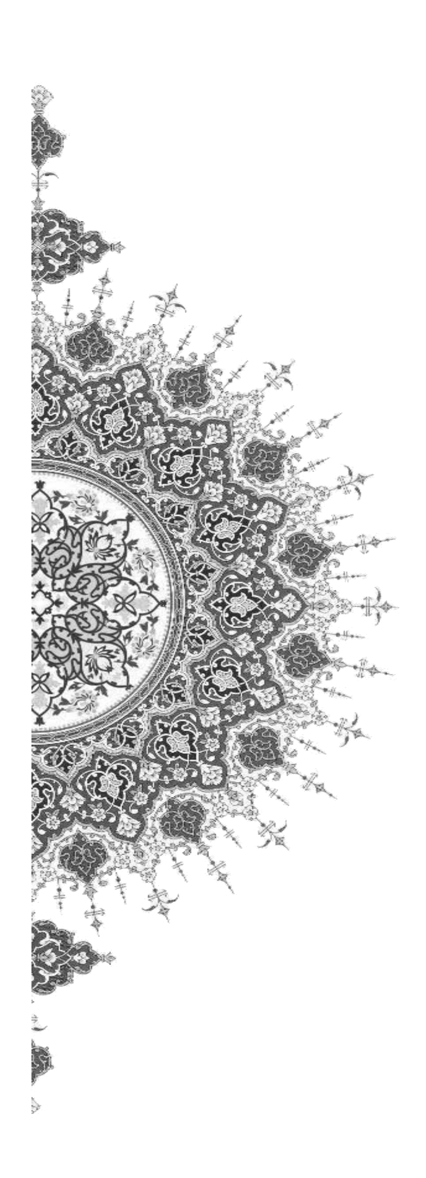
نقول للناس جميعا: إنه يكفي كل ما قلنا كأدلة علمية على وجود الله.. كلها جاءت من أفواه الذين لا يؤمنون.. ورفضوا الإيمان حتى بعد أن سمعوا هذا الإعجاز القرآني إن كل ما أوردناه ليس مجال بحث ولكنه قائم على المشاهدة والرؤية.. وعلى صور عرضت وقدمت.. ولم يكن الذين قدموا هذه الصور يهمهم إثبات معجزات وآيات القرآن الكريم.. بل إن معظمهم كان يقول: إذا جاء العلم فليتراجع الدين

وبعضهم عارض في أول الأمر في الاشتراك في حوار يدخل فيه الدين وإذا كان الله -سبحانه وتعالى- قد استخدم غير المؤمنين في إثبات قضية الإيمان.. فلابد أن نعلم أن المؤمن والكافر. كليهما يخدم قضية الإيمان في الكون .

***

الفصل السادس

وفي كل شيء دليل



معجزات القرآن لا تنتهي وفيها الدليل

الله -سبحانه وتعالى- جعل القرآن معجزة باقية إلى يوم القيامة ... ولذلك وضع فيه الدليل تلو الدليل.. على ما يتحدى به غير المؤمنين ليرد على ادعاءاتهم، ولقد قيل إن عصر المعجزات انتهى.. ولكن معجزات القرآن لا تنتهي حتى تقوم الساعة ومعاني الآيات لا تتضح في عصر واحد.. بل كل عصر نصل إلى معنى لم نكن قد وصلنا إليه والقرآن معجزة ومنهج.. المنهج هو ما رسمه الله لنا كطريق للعبادة والحياة، ثم تفسيره وبيانه كاملا في حياة رسول الله ﷺ فالعبادات والمعاملات وغيرها فيما يتصل بافعل ولا تفعل.. بيَّنها رسول الله ﷺ.

فالصلوات المفروضة فيه مثلا خمس لا تزيد ولا تنقص إلى القيامة.. وكذلك الأحكام وكل ما يتعلق بمنهج السماء.. كلها أتت حسمت وبينت تماما.. ولكن المعجزة في القرآن الكريم هي التى بقيت لتعطي كل جيل معنى إعجازيا لم يصل إليه الجيل الذي قبله.

ولو أن معجزة القرآن توقفت عند النزول لجمد القرآن فلم يعد يعطي شيئا جديدا.. ولكن لأن هذا الكتاب معجزة متجددة.. فهو يعطى لكل جيل عطاء جديدا.. وهكذا تجد كل عصر عطاء للقرآن لم يكن موجودا في العصر الذي قبله فإذا قرأنا مثلا الآية الكريمة:﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾(سورة الروم: الآيتان٢، ٣)

وجدنا أن عطاء أدنى حين نزل القرآن كانت بمعنى المكان القريب لأرض العرب.. ولما تقدم العلم واستطاع الإنسان أن يصور سطح الأرض بالأقمار الصناعية.. وجد أن مكان المعركة بين الروم والفرس هو أكثر الأماكن انخفاضا على سطح الأرض.. وإذا قرأنا الآية الكريمة:

﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ سورة الأنفال:الآية ٤٢) نجد أن الله -سبحانه وتعالى- قد حدد ثلاثة مواقع.. موقع المؤمنين وهم قريبون إلى المدينة المنورة.. وموقع الكفار وهم بعيدون عن مكة المكرمة.. أي أن المؤمنين أقرب إلى مدينتهم وأهلهم.. والكفار بعيدون عن مدينتهم وأهلهم.. ثم قال تعالى : ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ والركب هو قافلة أبي سفيان التي أفلتت من المؤمنين. والمعروف أن أبا سفيان لكي يفلت بقافلته من المؤمنين غير مساره واتخذ طريق الساحل.. وهنا يجب أن نلتفت إلى قوله تعالى ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي موقع منخفض عنكم والمعروف أن ساحل البحر هو أكثر الأماكن انخفاضا في الأرض.. ولذلك تقاس كل الارتفاعات بسطح البحر.. فيقال هذا المكان يعلو ألف متر مثلا عن سطح البحر أو مائة متر أو غير ذلك .

إذن فسطح البحر المقياس الذي اتخذه العالم كله ليساوى صفرا في الارتفاع تقاس عليه كل الارتفاعات في الدنيا.. ولذلك قوله تعالى: ﴿أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾.. يلفتنا إلى

هذه الحقيقة.. ولكن القرآن الكريم لم يكتف بأن يبين هذا.. بل بين لنا أن هناك بقعة على سطح الأرض هي أكثر البقع انخفاضا على سطحها.. وهي التي دارت فيها المعركة بين الروم والفرس .

تعلم الأسماء أولا

وإذا قرأنا القرآن الكريم.. نجد أن الحق -سبحانه وتعالى- قد لفتنا إلى مصدر العلم للبشرية كلها.. فقال -سبحانه وتعالى﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٣١) وهكذا حدد القرآن الكريم في إعجاز مذهل مدخل العلم إلى البشر. فأنت حين تريد أن تعلم طفلك عندما يبدأ تمييز الأشياء.. لابد أن تعلمه الأسماء أولا.. فتقول له هذا كوب وهذا قلم وهذا كرسى وهذا طعام إلى آخر ذلك ونحن إذا لم نعلم الطفل هذه الأسماء فإنه لا يستطيع أن يفهم شيئا.. ولكنه إذا تعلم الأسماء أصبح بعد ذلك قادرا على استيعاب العلم.. ولذلك ففى الدنيا كلها وبالنسبة للبشرية كلها.. لابد أن نبدأ بأن نعلم أطفالنا أسماء الأشياء.. ثم بعد ذلك تختلف نظم التعليم من دولة إلى أخرى ومن طريقة إلى أخرى.. ولكنها كلها لابد أن تبدأ بتعليم الأسماء.. وهكذا نعرف أن بداية العلم من الله سبحانه وتعالى .

فقد بدأ الحق -جل جلاله- بتعليم الإنسان الأسماء.. ولازالت هذه البداية موجودة حتى الآن في كل نظم التعليم.. الأسماء أولا.. فإذا تعلم الطفل الأسماء بدأ يستوعب أي شيء آخر.. ونحن لا نعلم الطفل الأسماء في المدرسة فقط ..



ولكن هذا هو علم الفطرة.. تبدأه الأم مع طفلها قبل أن يذهب إلى المدرسة.. والأم المتعلمة وتلك التي لم تنل حظا من التعليم.. كلتاهما تبدأ بتعليم ابنها الأسماء.. لأن علم الفطرة تكون منه البداية دائما.. ثم بعد ذلك يتطور ويتبدل.. ولا يمكن أن يتم التفاهم بين الأم وطفلها ولا بين طفل وطفل آخر إلا إذا تعلما الأسماء أولا.. والعلم في الدول المتقدمة والدول المتخلفة لابد أن يبدأ بالأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة.. ولكن هناك إعجازا آخر بالعلم البشرى.. لابد أن نلتفت إليه.. وهو يحمل إلينا الدليل اللغوى على وجود الله .

آدم سمع ثم تكلم

فاللغة هي أساس التفاهم بين البشر.. واللغة ليست بيئة ولا حضارة ولا جنينا ولا لونا.. ولكنها تعتمد أساسا على السماع.. فإذا سمع الإنسان تكلم وإذا لم يسمع لا يتكلم.. ولذلك تجد دائما أن الأصم الذي لا يسمع أبكم لا ينطق.. فيقال دائما الصم والبكم.. لأن أساس الكلام هو السماع .. ولكي نفهم هذه الحقيقة جيدا وأن اللغة لا علاقة لها إلا بالسمع.. نقول: إننا إذا أتينا بطفل عربى وأخذناه بعد ولادته إلى بريطانيا مثلا.. بحيث لا يسمع إلا اللغة الإنجليزية.. نجد أن هذا الطفل يتكلم الإنجليزية.. فإذا حاولت أن تتحدث معه باللغة العربية فإنه لا يفهمك.. مع أنه عربي الأصل.. من أب وأم عربيين.. ولكنه لا يستطيع أن ينطق حرفا واحدا من اللغة العربية لأنه لم يسمعها.. فإذا جئنا بطفل إنجليزي وأخذناه إلى بلاد العرب فإنه سينشأ وهو يتكلم اللغة العربية.. ولا يعرف حرفا من الإنجليزية.. مع أنه من أصل إنجليزي.. وإذا أتينا بطفل إفريقي وكررنا معه نفس التجربة فسنحصل على نفس النتيجة.. إذن فاللغة لا علاقة لها بالأصل ولا باللون ولا بأي شيء آخر غير السماع .

وآدم حين خلقه الله وخلق حواء.. لابد أنه كان بينهما طريقة للتفاهم.. وإلا كيف تفاهما؟

لابد أنه كان بينهما لغة ما تفاهما بها.. ثم جاء أولاد آدم فكان بين آدم وحواء وأولادهما لغة للتفاهم سجلها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (سورة المائدة: آية ٢٧) إذن الثابت يقينا من القرآن الكريم أنه كانت هناك وسيلة للكلام بين آدم وأولاده.. وإذا كنا قد أثبتنا بالدليل المادي أن الإنسان لا يمكن أن يتكلم إلا إذا كان قد سمع.. وأن اللغة أساسها السماع.. فلابد أن آدم قد سمع حتى يستطيع أن يتكلم.. فإذا قال لنا الله –سبحانه وتعالى–: وعلم ادم الأسماء كلها.

إذن فلابد أن يكون آدم قد سمع الأسماء من الله –سبحانه وتعالى–.. وبما أن السمع هو وسيلة النطق بالكلام.. فكأن سماع آدم للأسماء من الله هو الذي علمه الكلام.. بدليل أن الله –سبحانه وتعالى– قال: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (سورة البقرة:٣١–٣٣) أي أن آدم تكلم وأنبأ الملائكة بالأسماء التي علمها الله له.. وإذا كان آدم نطق وتكلم فلابد أنه سمع من الله سبحانه.. وحواء سمعت من آدم فتكلمت.. وأولاد آدم وحواء سمعوا منهما فتكلموا .

هناك بعض الناس يقول إن الإنسان الأول لم يكن يتكلم، وإنما كان يتفاهم بالإشارة ثم بعد ذلك تكلم.. نقول إن هذا غير صحيح.. لأن أي إنسان لكي يتكلم لابد أن يسمع أولا.. فمن سمع أول إنسان تكلم سواء كان آدم أو من بعده.. إن الكلام لا يأتي إلا بالسماع.. والذين يتفاهمون بالإشارة يظلون طوال حياتهم يتفاهمون بنفس الأسلوب.. إلا إذا سمعوا من غيرهم. ..حينئذ تبدأ عندهم ملكة الكلام.. والصم والبكم الذين يعالجون من هذا الداء.. إذا لم يسمعوا فلن يتكلموا.

فإذا قال أحدهم إن البشر يتحدثون بلغات مختلفة ولهجات مختلفة.. نقول إن هذا دليل لنا وليس علينا، إن اللغة مصدرها البيئة.. وليس الجنس أو اللون أو أي شيء آخر.. وإن الكلام ليس صفة وراثية تولد مع الإنسان.. ولكنها صفة سمعية فلابد من السماع أولا وهكذا تعطينا القرائن كلها أن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي علم البشرية الكلام بأن علم آدم الأسماء.. ولا يمكن أن تكون هناك بداية علما ولا عقلا.. إلا هذه البداية التي ذكرها الله -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم.



الله.. دليل على وجود الله

وإذا كنا نريد أن نمضي في هذا الإعجاز فأمامنا مجالات كثيرة.. لفظ الجلالة.. كلمة: «الله» -سبحانه وتعالى-.. من أين جاءت؟.. إن الثابت لغويا أن المعنى لابد أن يوجد أولا ثم يوجد اللفظ أو الاسم.. فإذا لم يوجد المعنى لا يوجد اللفظ في اللغة.. وكل الاختراعات الحديثة التي لم تكن البشرية تعرف عنها شيئا لم توجد لها أسماء إلا بعد أن وجدت وعرفناها.. والإنسان لا يستطيع أن يفهم الكلام إلا إذا كان المعنى موجودا في عقله.. ولذلك فإن المجامع اللغوية في العالم تضيف كل فترة.. ألفاظا لمعان لم تكن موجودة ثم وجدت.. فكان لابد أن توجد لها ألفاظ تعبر عنها .

وعلى أية حال فإن العقل البشري يعجز عن فهم أى لفظ إذا لم يوجد في عقولنا المعنى أولا.. حتى إنك إذا حدثت أي إنسان بلفظ لا يفهمه.. فلابد أن يعرف المعنى أولا ثم بعد ذلك يفهم اللفظ.. ولكن الله سبحانه وتعالى غيب عنا.. لم يره أحد.. ومع ذلك فإن لفظ الجلالة موجود في كل لغات العالم.. والعقول كلها تفهمه.. فكيف يمكن أن يحدث هذا؟.. إلا إذا كان في داخلنا الإيمان الفطري الذي يعرفنا معنى لفظ الجلالة .

وهنا تأتي الآية الكريمة لتبين لنا هذا الإعجاز فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف: آية ١٧٢) إذن فلابد أن الله قد أشهدنا على نفسه فعندما ذكر لفظ الجلالة فهمناه.. ولابد أنه -سبحانه وتعالى- أشهد البشرية كلها.. لأنه لا توجد لغة في العالم ليس فيها لفظ الجلالة.. بل إن التحدي والإعجاز الإلهي يمضي أكثر من ذلك.. فيقول الله -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم:

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم: آية ٦٥) وهكذا أخبرنا الحق -سبحانه وتعالى- أن لفظ الجلالة لن يطلق على أحد غير ذاته الكريمة.. وهكذا تحدى الله البشرية كلها في أمر اختيارى.. فالاسم هو شيء من اختيار الإنسان.. ويوجد في هذا الكون الكفرة والملحدون وشياطين الإنس وغيرهم. ..فهل سمعت عن واحد سمى نفسه الله؟.. أو سمى ابنه الله؟.. لم يحدث.. ولن يحدث.. لأن الحق سبحانه وتعالى اختص بهذا الاسم ذاته الكريمة فلا يمكن لبشر أن يتخطى مراد الله ليطلق لفظ الجلالة على نفسه أو أحد أولاده.. بل إن الذين ادعوا الألوهية مثل فرعون وغيره.. ونصبوا أنفسهم آلهة يعبدون من دون الله.. لم يجرؤ واحد منهم ولم يخطر على باله أن يسمي نفسه الله .

وهكذا جاء التحدي للبشر جميعا في أمر اختياري ليؤكد للدنيا كلها.. أن أحدا لا يستطيع أن يخالف مرادات الله في كونه.. ولو كانت هذه المخالفة في منطقة الاختيار للإنسان.. ولو كانت هذه المخالفة من ملحد محارب لدين الله يريد الإضلال في الأرض.. أيوجد دليل مادي أكبر من هذا؟ الزيادة العددية في البشر دليل على وجود الله فإذا تركنا الأدلة اللغوية فإننا نجد هناك دليلا إحصائيا على وجود الحق –سبحانه وتعالى–.. الله –سبحانه وتعالى– يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (سورة الحجرات: آية١٣) الحق –سبحانه وتعالى– يخبرنا أن الخلق بدأ من ذكر وأنثى وهما آدم وحواء.. ثم جاء منهما كل هذا الخلق الذي نراه.. الدليل الإيماني على ذلك هو أن الله الذي قال.. والدليل المادي على ذلك هو أن علم الإحصاء يقول ذلك.. فإذا تتبعنا البشر في الكون نجد أن تعداد الناس في العالم اليوم يصل إلى كذا بليون نسمة .

فإذا فرضنا مثلا أن تعداد سكان العالم اليوم خمسة آلاف مليون.. كم كان عدد سكان العالم منذ قرن مضى؟.. سنجد أن تعدادهم كان أقل.. مثلا أربعة آلاف مليون.. ومنذ ثلاثة قرون مثلا كم كان عدد سكان العالم؟ طبعا كانوا أقل ومنذ عشرين قرنا من الزمان كم كان عدد سكان العالم؟.. نقول إنهم كانوا بضعة ملايين.. ومنذ ثلاثين قرنا من الزمان كم عدد سكان العالم؟.. نقول كانوا مليونين أو ثلاثة.. إذا كلما عدنا بالزمان إلى الوراء نجد أن عدد البشرية يتناقص.. وكلما تقدمنا بالزمن نجد أن عدد

البشرية يتزايد.. أليست هذه حقيقة إحصائية؟.. أيستطيع أحد من الماديين أو غير المؤمنين أن ينكر أنه كلما عدنا بالزمن إلى الوراء، فإن عدد البشر يتناقص؟.. وإذا كانت هي القاعدة المعترف بها.. فمعنى ذلك أنه كلما عدنا إلى الماضي تناقص عدد البشر.. ويظل عدد البشر يتناقص ويتناقص حتى نصل إلى نقطة البداية التي بدأت عندها حياة البشر.. فتكون هذه النقطة من ذكر وأنثى.. إذن التناقص في عدد البشرية الذي عرفناه وسجلناه بالإحصاءات لابد أن ينتهي إلى البداية التي بدأ منها تكاثر هذا الخلق وهما الذكر والأنثى.. وكلما مر الزمن كلما زادت أعداد البشر حتى وصلنا إلى تعداد العالم الآن .

فلو أن تعداد البشر كان يتناقص مع الزمن.. أي أن الدنيا بدأت بألف مليون إنسان وانتهت في عصرنا هذا بمائة مليون.. لكان ذلك يؤكد لنا أنه من المستحيل أن تكون البشرية قد بدأت بذكر وأنثى.. لأن الدليل العلمي سيكون في هذه الحالة شاهدا على أن ذلك لا يمكن أن يحدث.

فمادام البشر يتناقص مع مرور الزمن فلا يمكن أن تكون البداية من ذكر وأنثى.. ولكن كون البشر يتزايد عددهم مع مرور الزمن ويتناقص عددهم كلما عدنا إلى الوراء في الماضي.. حتى إنه في العصور الأولى لم تكن إلا أجزاء صغيرة من الأرض يعيش فيها الناس.. والباقي لا يوجد فيه أحد.. فهذا يعطينا الدليل على أن البداية كانت من ذكر وأنثى.

في التاريخ عبرة ودليل على وجود الله فإذا ذهبنا إلى التاريخ فنحن نجد فيه الدليل المادي على وجود الله -سبحانه وتعالى-.. وعلى علمه وعلى معجزاته.. إذا قرأنا السورة الكريمة.. سورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل) هذه معجزة لم يأت بها رسول.. ولم تنزل لتثبيت الإيمان على قوم نبي كان يدعو قومه للإيمان وهم لا يؤمنون.. ولكنها حدثت الإثبات القدسية والحماية لبيت الله الحرام.. ولقد ولد رسول الله ﷺ في عام الفيل.. وكانت هذه المعجزة علامة على أن دين الله الذي سينزل على هذا الرسول إذا تخلى عنه البشر جميعا.. فإن الله -جل جلاله- سيحميه ويحفظه.

والقصة معروفة، وبطلها في ذلك الوقت أبرهة.. الذي بني بيتا ليحج إليه الناس بدلا من الكعبة.. وجاء بعض الأعراب وألقوا فيه قاذورات، فصمم أبرهة أن ينتقم بهدم الكعبة.. وأخذ جيشا ضخما وعددا كبيرا من الأفيال وذهب إلى مكة.. فلما رأى أهل مكة هذا الجيش هربوا وفروا.. فجاء الطير بحجارة من جهنم.. قضت على أبرهة وجيشه وأفياله في دقائق.

القصة يرفض تصديقها العقل غير المؤمن.. إذ كيف يمكن الطير الصغير أن يقضي على جيش من الأفيال.. بينما لو وقفت مئات من الطير على جسد فيل واحد لا يحس بها.. ولقد توقف بعض العلماء عند هذه السورة الكريمة فقالوا: إن الله أرسل

جراثيم لتقضي على أبرهة وجيشه.. وكأنهم يريدون أن يسهلوا الأمر على الله مع أن الله على كل شيء قدير.. نقول: لقد ولد رسول الله ﷺ في عام الفيل.. وبعث في الأربعين.. ونزلت هذه السورة في مكة وفي بداية الدعوة الإسلامية.. وكان الكفار هم القوة والعزة.. والمسلمون هم القلة والضعف.. وكان الكفار يبحثون عن أي شيء للطعن في الدين الإسلامي نقول: إن هذه السورة نزلت في مكة.. والرسول ﷺ كلفه الله بالرسالة وعمره أربعون سنة.. أي أن هناك من أهل مكة من كان يبلغ الخامسة والخمسين والستين والخامسة والستين والسبعين وهم قد شهدوا هذه المعجزة، ورأوها رؤية العين.. ولو أن الطير لم تأت وجيش أبرهة لم يتم إفناؤه في لحظات.. لقال هؤلاء الناس إن هذا الكلام غير صحيح.. ولقد كنا موجودين في مكة في هذا الوقت.. ولم نر طيرا جاءت ولا جيشا أفنى.. ولطعنوا بذلك في الإسلام وفي القرآن وفي أنه كلام الله.. ولكن كون الطير جاء.. وكون المعجزة تمت.. لم يجرؤ أحد من أعداء الإسلام أن يطعن فيه .

وهكذا يعطينا الحق –سبحانه وتعالى– دليلا من التاريخ لمعجزة مشهودة حدثت.. ويعطينا معها الدليل على صدق حدوثها.. فإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكرناه سابقا عن قوله تعالى :﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ (الروم: ١–٣) لوجدنا دليلا تاريخيا آخر ثم يأتي بعد ذلك دليل ثالث يضاف إلى هذه الأدلة التاريخية الهكسوس والفراعنة في القرآن من الأدلة المادية



على وجود الله نلاحظ أن الحق -سبحانه وتعالى-.. كان عندما يذكر في القرآن الكريم شيئا عن حاكم مصر في عصر موسى عليه السلام.. كان يسميه فرعون.. أي أن الذين حكموا مصر أطلق عليهم القرآن اسم الفراعنة.. فيقول تعالى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١) وهذا يتفق مع التاريخ في أن الذين حكموا مصر في العصور القديمة هم الفراعنة.. إذن حكام مصر القدامى فراعنة.. والقرآن سماهم فراعنة.. فإذا أتينا إلى سورة يوسف (عليه السلام) وجدنا أن الله -سبحانه وتعالى- ، وهو يروى لنا في القرآن الكريم قصة يوسف (عليه السلام) في مصر.. لم يلقب حاكم مصر بفرعون.. بل لقبه بالملك فقال -تعالى-: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ (يوسف: ٥٤) وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَـٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣)

إذن فثابت من القرآن الكريم أن يوسف (عليه السلام) عاش في مصر.. وأنه خلال وجوده في مصر اختلف في القرآن الكريم اسم حاكم مصر.. فلم يكن يلقب بفرعون.. بل لقب باسم الملك.. ويمضي الزمن ويكتشف حجر رشيد.. وتحل رموز اللغة المصرية القديمة.. ويثبت أن يوسف (عليه السلام) عاش في مصر في الفترة التي احتلها فيها الهكسوس.. وأن هؤلاء لم يكونوا من الفراعنة.. وأن حاكمهم كان

يطلق عليه اسم الملك.. ولم يكن يطلق عليه اسم فرعون.. وأن المصريين طردوا الهكسوس.. وعاد الفراعنة إلى الحكم مرة أخرى.. من الذي أنبأ محمدا ﷺ بهذه الحقائق التاريخية التي لم يعرفها العالم إلا في الفترة الأخيرة بعد اكتشاف حجر رشيد.. وكيف علم أن يوسف (عليه السلام) كان في عهد الهكسوس.. وأن موسى (عليه السلام) كان في عهد الفراعنة.

وهكذا يأبي الحق -سبحانه وتعالى- إلا أن يعطينا الدليل المادي التاريخي على إعجاز هذا القرآن.. وعلى أن الله يعلم ما في الدنيا والآخرة.. وإنه بكل شيء عليم.. وحتى يظهر ذلك لعباده وبالدليل المادي.. جاء بحقيقة تاريخية لم يكن يعلمها أحد من البشر وقت نزول القرآن.. وذكرها في كتابه العزيز.. حتى إذا تقدم الزمن وكشف الله لخلقه ما شاء من علمه.. ظهرت لهم هذه الحقيقة لتكون عطاء وإعجارا جديدا للقرآن الكريم.. في الوقت الذي تظهر فيه هذه الحقيقة وتخرج إلى علم البشر.. حتى تكون معجزة من معجزات القرآن يظهرها الله بعد نزول القرآن الكريم بقرون عديدة .

على أن الله -سبحانه وتعالى- قد أعطى من أسرار ملكه ما شاء لمن يشاء.. وكشف عما شاء من علمه لمن شاء.. ولكنه احتفظ لنفسه بعلم بدء الحياة أو الخلق.. وبعوامل استمرار الحياة.. وبنهاية الحياة وهى الموت.. فمهما تقدم العلم وازدهر.. وكشف الله من أسرار كونه.. فإن الله هو الذي يحيي ويميت.. وسيظل يحيي ويميت إلى أن

تأتي الآخرة ويتم الحساب.. وتقبض روح ملك الموت.. فلا يصبح هناك موت.. ولكن خلود.. إما في الجنة وإما في النار .

تأمل قول الحق -سبحانه وتعالى- في سورة الشعراء: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ * وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾ (سورة الشعراء: الآيات ٧٨-٨١) وإذا أردنا أن نتأمل ما جاء في هذه الآيات ونستعرض الإعجاز فيها بإيجاز.. نجد أن قضية الخلق محسومة لله -سبحانه وتعالى- .. فهو وحده الخالق.. والكل عاجز.. ولا أحد يستطيع أن يدعى أنه يقدر على خلق شيء.. ولكن قضية الموت فيها جدل.. فإذا قرأت قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٥٨)

والآية تروى قصة الحوار بين من آتاه الله الملك وبين إبراهيم (عليه السلام).. فلما قال له إبراهيم ربي يحيي ويميت.. أخذت من آتاه الله الملك العزة فقال أنا أحيى وأميت.. وجاء برجل من رعيته، فحكم عليه بالإعدام وقال هو ميت.. ثم عفا عنه وقال أحييته.. نقول إن الناس لا تتنبه للفرق بين القتل والموت.. فالقتل هو إفساد لجسد الإنسان يجعل الجسد غير صالح لبقاء الروح فيه فتغادره، ولكن الموت هو إخراج الروح من الجسد دون هدم أو إفساد للجسد.. ولذلك فرق الله بين الاثنين

في القرآن الكريم فقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٤٤)

وقال جل جلاله﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (سورة آل عمران:الآية ١٥٨) إذن الموت لله وحده هو الذي يميت ولكن القتل وهو غير الموت يمكن أن يتم على يد عباد الله .

ولأن الله هو الذي يميت.. فلا أحد ينجو من الموت أبدا.. لأن أمر الله نافذ على كل خلقه.. ولأن الإنسان غير نافذ في الكون.. ثم تقول الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٧٩) ويلاحظ في الآية الأولى أن الحق – سبحانه وتعالى– لم يستخدم أسلوب التأكيد فقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى ﴾ ولم يقل هو الذي خلقني لأنه لا أحد نازع الله في الخلق.. ولكن الطعام والشراب جعلهما الله أسبابًا للإنسان.. فجاء التأكيد هنا ليلفتنا إلى أن هذه الأسباب ليست هي الأصل.. وأما كل شيء من الله.. فالحبة في أي نبات خلقها الله –سبحانه وتعالى– ووضع فيها خصائصها.. وخزن فيها الغذاء الذي يلزمها حتى تستطيع جذورها أن تضرب في الأرض لتأخذ منها عناصر الحياة.. وهو الذي أعطاها خصائصها.. وخلق لها الأرض التي تزرع فيها.. وأنت تضع الحبة في الأرض فتظل تتغذى على المخزون فيها من الغذاء الذي وجد فيها بقدرة الله.. ثم بعد ذلك تمتص من عناصر الأرض

ما يلزمها ولا تأخذ الباقى.. ثم تظل تنمو وتنمو حتى تثمر بقدرة الله وليس بجهد بشر.. فكأن الطعام كله من الله -سبحانه وتعالى-. .

الداء والدواء دليل مادي على وجود الله فإذا جئنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (سورة الشعراء: الآية ٨٠) نجد أن هناك جدلًا كثيرا حول هذه الآية.. فالناس تقول إن الطبيب هو الذي يشفي، ولكن الحقيقة هي أن الشفاء بيد الله وحده.. وأن الطبيب يعالج فقط.. وقد يأتي على يده الشفاء.. وقد يخطيء في العلاج فيكون على يده الموت.

والله -سبحانه وتعالى- جعل لكل داء شفاء.. ولذلك يحدث كثيرا أن طبيبا مبتدئا يكتب الدواء الصحيح لمريض عرض نفسه على أكبر الأطباء فلم يعرفوا لدائه دواء.. وفي هذه الحالة قد يتعجب الناس ويقولون: إن هذا الطبيب حديث التخرج أعلم من أساتذته.. نقول لهم هذا تفسير خاطىء.. فالأستاذ قطعا أعلم من تلميذه.. وهو الذي علمه.. ولكن قدر الله -سبحانه وتعالى- بالشفاء جاء فكشف الله عن الداء لهذا الطبيب المبتدىء.. فكتب الدواء وتم الشفاء وليس معنى أن الله هو الشافي ألا نلتمس الوسيلة للعلاج.. فنحن في هذه الدنيا أمرنا الحق -سبحانه وتعالى- أن نأخذ بالأسباب.. ثم بعد ذلك نتوكل على الله في النتائج والآية الكريمة تقول بعد ذلك: ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (سورة الشعراء:الآية ٨١) ونلاحظ هنا أن الحق -سبحانه وتعالى- لم يستخدم أسلوب التأكيد فيقول وهو الذي يميتني ثم يحيين.. لأنه

لا أحد يستطيع أن ينازع الله في الموت أو البعث.. فإذا جاء البعث فالله وحده القادر على بعث الموتى.. وبذلك نكون قد أثبتنا بالدليل المادي أن بداية الحياة واستمرار الحياة ونهاية الحياة.. هي من قدرات الله –سبحانه وتعالى– وحده في صناعة اللبن دليل مادي على وجود الله فإذا جئنا للشراب نجد أن كل ما يشربه الإنسان هو من الله –سبحانه وتعالى– فالماء ينزل من السماء عذبا سائغا بقدرة الله.. واللبن نأخذه من الحيوان وهو مخلوق بقدرة الله ولقد حاول العلم أن يصنع اللبن فجاء باللبن الطبيعي وحلله إلى عناصره.. ثم جاء بهذه العناصر وخلطها مع بعضها البعض بنفس النسب الموجودة في اللبن الطبيعي.. ثم جاء بعشرين فأرا سقى عشرة منها اللبن الطبيعي.. فنمت الفئران التي سقيت اللبن الطبيعي وماتت الفئران التي أعطيت اللبن الصناعي .

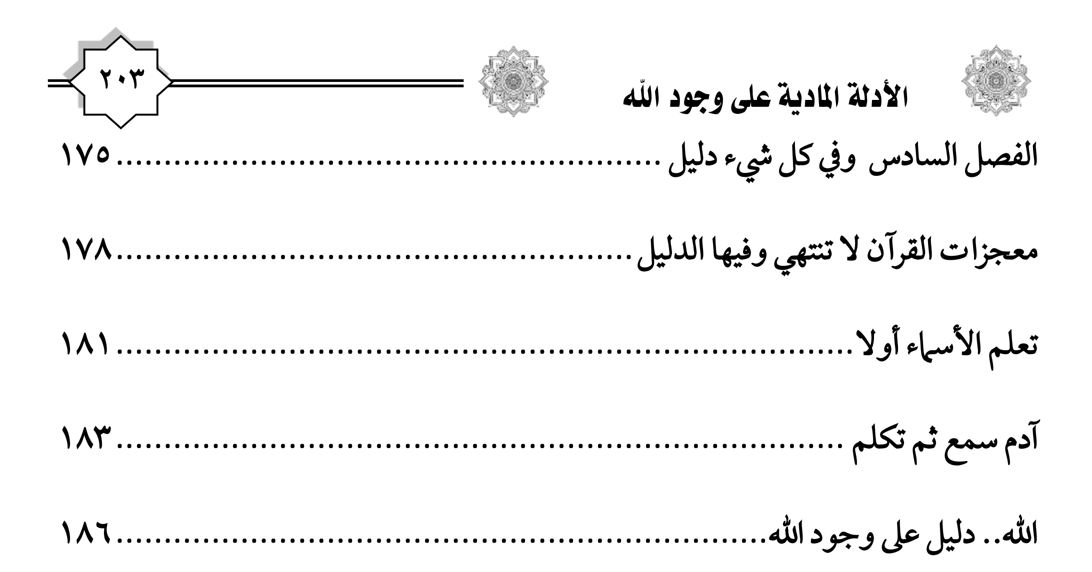
ولازال العلم حتى الآن عاجزا عن أن يصنع نقطة لبن واحدة.. بل إن بعض دول العالم التي تعاني نقصا شديدا في اللبن.. لا تستطيع أن تحل الأزمة.. فتحرم اللبن على الكبار ليكون متوفرا للأطفال.. ومنها الاتحاد السوفيتي والصين وكوريا الجنوبية وغيرها من دول العالم.. ومن الإعجاز الإلهي أن هذا اللبن تعطيه لنا حيوانات يجري في عروقها الدم.. فلا يختلط اللبن والدم أبدا.. وفي ذلك يقول الحق –سبحانه وتعالى– ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ (سورة النحل:الآية ٦٦) على أن العلم البشري كله عاجز حتى الآن عن أن يسقى الناس الماء

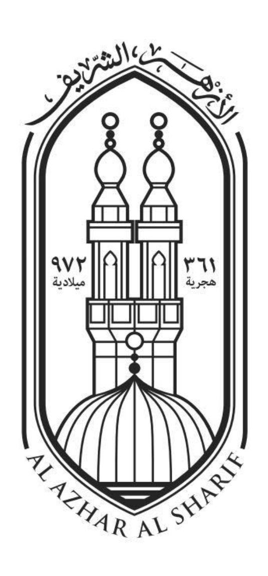


أو اللبن.. فالإنسان الذي وصل إلى القمر عاجز عن أن يصنع ترعة صغيرة.. أو كوبا من اللبن.. أما باقي الأشياء الأخرى التي يشربها الإنسان فهي مما أوجدها فيها من ثمر يضاف إليها الماء أو لا يضاف.

وإذا كنا قد جئنا إلى نهاية هذا الكتاب.. فنرجو من الله -سبحانه وتعالى- أن يكون قد هدانا إلى ما يثبت الإيمان في القلوب.. وما يرد على أولئك الملحدين الذين يدعون أنه لا توجد أدلة مادية في الكون على وجود الله.. ونرجو من الحق -جل جلاله- أن يتقبل منا.. إنه هو السميع العليم.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس المحتويات




الأزهر الشريف
٣٦١
هجرية
٩٧٢
ميلادية
AL AZHAR AL SHARIF